ومغاوير . ودهم . وذهم . وشهب وكمت وصلاب وصلاد . وانجاب وانجاد . وجلب ولجب • وبيض ويلب . وبيض وسود واساود وسود . وجرد . ومرد . وكهول . وفحول . ورقاق . وعتاق . وقود . واطلاب وابطال . وفوارس . ورجال . وخفاف وثقال . وعراب واعاريب . وسراحين وسراحيب . وحدلا يكل . وجد لا يمل . وجمر يتقى . وجمع لا يلتقي . ومعه رماة الاحداق كماة الاتراك . وهداة التوحيد عداة الاشراك . فقرت عينه بولده . واعتضد بعضده . ووضع يده بتأييد الله . في يده . وكان قد استدعى الاساطيل المنصورة فوافت كالفتخ الكواسر . بالفلك المواخر . وجاءت كأنها امواجا تلاطم امواجا . وافواجا تزاحم افواجا . تدب على البحر عقاربها . وتخب كقطع الليل سحائبها . وتجر بالذوابل ذوائبها . وتزاحم مناكب الاطواد مناكبها . والحاجب لؤلؤ مقدمها ومقدامها • وضرغام غابها وهمامها • فطفق يكسر ويكسب ويسل ويسلب . ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه . ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه . وسيأتي ذكر ذلك في موضعه . ويظهر في وقائعه حسن موقعه .

فتح بيت الله المقدس

ثم رحل من عسقلان للقدس طالبا . وبالعزم غالبا . والنصر مصاحبا ولنيل العز ساحبا . قد اصحب ريض مناه . واخصب روض غناه . واصبح رائج الرجاء . أرج الارجاء سيب العرف . طيب العرف . ظاهر اليد . قاهر الايد . سني عسكره قد فاض بالفضاء فضاء . وملأ الملا فأفاض الآلاء . وقد بسط عتير فيلقه ملاءته على الفلق . وكأنما اعاد العجاج وأد الضحى جنح الغسق . فالأرض شاكية من اجحاف الجحافل • والسماء حاظية بأقساط القساطل • وسار سارا بالاحوال الحوالي . مروية

احاديث فتوحه العوالي من العوالي . مطوية مدارج مناجحة على ماتنشره الآمال من الامالي . وقد حلت وعلت من مفارس النصر ومطالعة المجاني والمجالي . والاسلام يخطب من القدس عروسا . ويبذلها في المهر نفوسا ويحمل اليها نعي ليحمل عنها بوسي . ويهدي بشرا .

ليذهب عبوسا . ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعية لاعدائها على اعدائها . واجابة دعائها . وتلبية ندائها . واطلاع زهر المصابيح في سمائها . واعادة الايمان الغريب منها الى وطنه . ورده الى سكونه وسكنه . واقصاء الذين اقصاهم الله بلعنته من الاقصى . وجذب قياد فتحه الذي استعصى . واسكات الناقوس منه بانطاق الاذان . وكف كف الكفر عنه بايمان الايمان . وتطهيره من نجاس تلك الاجناس . وادناس ادنى الناس . وافحام الافهام باخراس الاجراس . وطار الخبر الى القدس فطارت قلوب من به رعبا وطاشت . وخفقت افئدتهم خوفا من جيش الاسلام وجاشت . وتمنت الفرنج لما شاعت الاخبار انها ما عاشت . وكان به من مقدمي الافرنج باليان بن بارزان والبطرك الاعظم . ومن كلا الطائفتين الاسبتارية والداوية المقدم . فاشتعل بال باليان . واشتعل بالنيران . وخمدت نار بطر البطرك . وضاقت بالقوم منازلهم فكأن كل دار منها شرك للمشرك . وقاموا بالتدبير في مقام الادبار . وتقسمت افكار الكفار . وايس الفرنج من الفرج . واجمعوا على بذل المهج .

ذكر كنيسة قمامة

وقالوا ههنا نطرح الرؤوس . ونسبك النفوس . ونسفك الدماء . ونهلك الدهماء . ونصبر على اقتراح القروح واجتراح الجروح . ونسمح بالارواح شحا بمحل الروح . فهذه قمامتنا فيها مقامتنا • ومنها قيامتنا • وتصيح هامتنا • وتصح

ندامتنا . وتسيح علامتنا . وتسح عمامتنا . وبها غرامنا . وعليها غرامتنا . وباكرامها كرامتنا . وبسلامتها سلامتنا . وباستقامتها استقامتنا . وفي استدامتها استدامتنا . وان تخلينا عنها لزمت لامتنا . ووجبت ملامتنا . ففيها المصلب والمطلب . والمذبح والمقرب . والمجمع والمعبد . والمهبط والمصعد . والمرقي والمرقب . والمشرب والملعب . والمموه والمذهب . والمطلع والمقطع . والمربي والمربع . والمرخم والمخرم . والمحال والمحرم . والصور والاشكال . والانظار والامثال . والآساد والاشبال . والاشباه والاشباح . والاعمدة والالواح . والاجسام والارواح . وفيها صور الحواريين في حوارهم . والاحبار في احبارهم . والرهابين في صوامعهم . والاقساء في مجامعهم والسحرة وحبالها . والكهنة وخيالها . ومثال السيدة والسيد . والهيكل والمولد . والمائدة والحوت . والمنعوت والمنحوت . والتلاميذ والمعلم . والمهد والصبي المتكلم . وصورة الكبش والحمار . والجنة والنار . والذواقيس . والذواميس . قالوا : وفيها صلب المسيح . وقرب الذبيح . وتجسد اللاهوت . وتأله الناسوت . واستقام التركيب . وقام الصليب . ونزل الذور . وزال الديجور . وازدوجت الطبيعة بالاقنوم . وامتزج الموجود بالمعدوم . وعمدت معمودية المعبود . ومخضت البتول بالمولود . وأضافوا الى متعبدهم من هذه الضلالات . ما ضلوا فيه بالشبه عن نهج الدلالات . وقالوا دون مقبرة ربنا نموت وعلى خوف فوتها منا نفوت . وعنها ندافع . وعليها نقارع . وما لنا لا نقاتل . وكيف لاننازع ولا ننازل . ولاي معنى نتركهم حتى يأخذوا . وندعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا . وتأهبوا وتباهوا . ومانتهوا بل تناهوا . ونصبوا المجانيق امات الأسواء على الاسوار . وستروا بظلمات الستائر وجوه الانوار . واستشاطت شياطينهم . وسرحت سراحينهم وطفت طواغيتهم . وأصلتت مصاليتهم . ونشرت طواميرهم . وتسعرت مساعيرهم . وهاج هائجهم . وماج مائجهم . ودعت دواعيهم . وعدت عواديهم . وسعت افاعيهم . وحضتهم

قسوسهم . وحرضتهم رؤرسهم . وحركتهم ذفوسهم . وجاءتهم بجوى السوء جواسيسهم . واخبرتهم باقبال العساكر الناصرية منصورة الجنود . منشورة البنود . موصولة القواطع بالاشاجع مهجورة الغمود . مشهورة القواضب . مشهودة الكتائب . مقودة الضوامر الى نار العدى . موقدة الضمائر بنار الهدى . مشبوبة العزائم . مجذونة الصلادم . مسلولة الظبا . مطلولة الربا . مجذوبة أجنة اغمادها . مسنونة اسنة صعادها . مطلقة اعنة جيادها . محققة مظنة طرادها . قد سالت الوهاد باكامها . وجالت الأعلام في اعلامها . وسدت الفجاج امواجها . وحجبت الغزالة عقبانها . والهبت الذبالة خرصانها . وجرت بالجبال رياحها . وجرت كالحبال رماحها واشتمل على الضراغم غيلها . واقبل بالعظائم قبيلها . ووافى كل واف بعهد ربه . كاف لكف خطبه . شاف لهم قلبه . ضاف بفيض شربه . خاف في لبوسه . باسل ببأسه . عاسل بأمراسه . ناسل بنت الغمد من جفنه . غاسل نبت الحد بدم قرنه . واصل بيض الهند بسواعده . فاصل خطاب الخطوب ببوارقه وروا عده حاد بجده . جاد بحده . وكل شاب لنار الحرب شاب . ورب دين لدين الرب راب . وكل جيش كالبحر عباب . وكل سال ذي ذباب عن الهدى ذاب . وكل قائل بالآخرة للحياة الدنيا قال . سائل من الله الشهادة عن حب البقاء سال . مائل في سبيل الله الى انفاق مال . واقبل السلطان باقبال سلطانه . وابطال شجعانه . واقيال أولاده واخوانه . واشبال مماليكه وغلمانه . وكرام امرائه . وعظام أوليائه . في مقانب بالمناقب مقنبه . وكتائب بالمواكب مكتبة . وذوابل بالكواكب منصله . وجحافل بمضاء المضارب محفله . وألوية صفر للاواء بني الأصفر . وبيض وسمر تزرق زرق العدا من الموت الأحمر . وقباب وقبائل . وقنا وقنابل . وصوافن صواهل . وعوامل وعواسل . وفوارس فوارس . وكل من يبذل للشح بدينه النفوس والنفائس . وأصبح يسأل عن الاقصى وطريقه الادنى . وفريقه الاسنى . يذكر مايفتح الله عليه بحسن فتحه من الحسنى .

وصف البيت المقدس

وقال ان اسعدنا من الله على اخراج اعدائه من بيته المقدس فما اسعدنا . وأي يد له عندنا اذا ايدنا . فانه مكث في يد الكفر احدى وتسعين سنة . لم يتقبل الله فيه من عابد حسنه . ودامت همم الملوك دونه متوسنة . وخلت القرون عنه متخلية . وحلت الفرنج به متولية . فما ادخر الله فضيلة فتحه . الا لآل ايوب . ليجمع لهم بالقبول القلوب . وخص به عصر الامام الناصر لدين الله ليفضله به على الاعصار . ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الامصار . وكيف لا يهتم بافتتاح البيت المقدس الأقوى . والمسجد الاقصى المؤسس على التقوى . وهو مقام الانبياء . ومقام الاولياء . ومعبد الاتقياء ومزار ابدال الأرض وملائكة السماء . ومنه المحشر والمنشر . ويتوافد اليه من اولياء الله بعد المعشر . وفيه الصخرة التي صينت جدة ابهاجها من الانهاج . ومنها منهاج المعراج . ولها القبة الشماء التي على رأسها كالتاج . وفيه ومض البارق ومضى البراق وأضاءت ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق . ومن ابوابه باب الرحمة الذي يستوجب داخله الى الجنة بالدخول الخلود . وفيه كرسي سليمان ومحراب داود . وله عين سلوان التي تمثل لواردها من الكوثر الحوض المورود . وهو اول القبلتين . وثاني البيتين . وثالث الحرمين . وهو احد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي انها تشد اليها الرحال . ويعقد الرجاء بها الرجال . ولعل الله يعيده بنا الى احسن صوره . كما شرفه بذكره مع اشرف خلقه في أول سورة . وقال عز من قائل : « سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ». وله فضائل ومناقب لا تحصى . واليه ومنه كان الاسراء . ولأرضه فتحت السماء . وعنه تؤثر انباء الأنبياء وآلاء الأولياء . ومشاهد الشهداء . وكرامات الكرماء . وعلامات العلماء . وفيه مبارك المبار . ومسارح المسار . وصخرته الطولى . القبلة الاولى . ومنها

تعالت القدم النبوية . وتوالت البركة العلوية . وعندها صلى نبينا صلى الله عليه وسلم بالنبيين . وصحب الروح الامين . وصعد منها الى اعلى عليين . وفيه محراب مريم عليها السلام الذي قال الله فيه : « كلما دخل عليها زكريا » . ولنهاره التعبد وليله المحيا . وهو الذي اسسه داود واوصى ببنائه سليمان . ولأجل اجلاله انزل الله « سبحان ». وهو الذي افتتحه الفاروق وافتتحت به سورة من الفرقان . فما اجله واعظمه . واشرفه وافخمه . واعلاه واجلاه . واسماه واسناه . وايمن بركاته وابرك ميامنه . واحسن حالاته واحلى محاسنه . وأزين مباهجه وابهج مزاينه . وقد اظهر الله طوله وطوله .بقوله : «الذي باركنا حوله » . وكم فيه من الآيات التي اراها الله نبيه . وجعل مسموعنا من فضائله مرئية . ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه . ما وثق على استعادة آلائه مواثيقه والاياه . واقسم لا يبرح حتى يبر قسمه . ويرفع بأعلاه علمه . وتخطو الى زيارة موضع القدم النبوية قدمه . ويصغي الى صرخة الصخرة .ويبغي بالبشرى بشر اسرة الاسرة . وسار واثقا بكمال النصرة وزوال العسرة . وحسر الفرنج قناع الحسرة . ونزل على غربي القدس يوم الأحد خامس عشر رجب . وقلب الكفر قد وجب . وحزب الشرك قد شارف الشجى والشجب . والقدر قد اظهر العجب . وكان في القدس حينئذ من الفرنج ستون الف مقاتل . من سائف ونابل . وبطل للباطل . وعاس عاسل بالعاسل .قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون . ويعاجزون ويناجزون . ويرمون ويدمون . ويحمونه ويحمون . ويحتدون ويحتدمون ويضطربون ويضطرمون . ويذودون ويذبون . ويشبون ويسبون . ويصرخون ويحرضون . ويلهثون ويتغوثون . ويلوذون ويلوبون . ويجولون ويجوبون . ويقدمون ويحجمون . ويتململون ويألمون . ويتعاوون . ويتضاعون ويحترقون للبلايا . ويقترحون المنايا . وقاتلوا اشد قتال . وناضلوا أحد نضال . ونازلوا اجد نزال . وطافوا بصحاف الصفاح . لارواء الظبا الظماء من ماء الأرواح . وجالوا بالأوجال . واجالوا قداح الآجال . وصالوا لقطع

الاوصال . والتهموا . والتهبوا . وتأشبوا وذشبوا . واستهدفوا للسهام . واستوقفوا الحمام . وقالوا كل واحد منا بعشرين . وكل عشرين بمئتين . ودون القمامة تقوم القيامة . ولحب سلامتها تقلى السلامة . ودامت الحرب . واستمر الطعن والضرب . فانتقل السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب الى الجانب الشمالي وخيم هنالك . وضيق على الفرنج المسالك . ووسع عليهم المهالك ونصب المجانيق . ومري من آفاتها الافاويق . واصرخ الصخرة بالصخور . وحشر حشر السوء منهم وراء السور . فما عادوا يخرجون من السور الرؤوس . الا ويلقون البوس . واليوم العبوس . ويلقون على الردى النفوس . فللداوية دوي . وللبارونية من البوار في الهاوية هوى . وللاسبتار تبار . وما للفريرية من الموت فرار . وما بين الحجار المحلقة وبين المرمى اليهم حجاب . وفي كل قلب من الفئتين من نار حرصه التهاب . اذ الوجوه لقبل النصال مكشوفة . والقلوب للوجد بالقتال ملهوفة . والايدي على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة . والنفوس لاستبطاء الهمم في الاهتمام مهمومة . وقواعد السور ونواجذ شراريفه بالاحجار الخارجة من الكفات مهدومة مهتومة . فكائن المجانيق مجانين يرامون . ومناجيد لا يرامون . وجبال تجذبها حبال . ورجال تنجدها رجال . وأمات الدواهي والمنايا . وحوامل تلد البلايا . لا حجر عليها في حجر . ولا أمن عندها من حذر . ولا تخطر سهامها الا بالخطر . ولا خطر مرورها الا مرارات ذوي الفطر . فكم نجم من سمائها ينقض . وصخر من ارضها يرفض . وجمر من شرارها يذفض . وما شيء كآفات كفاتها . وآيات ذكاياتها . وركات اد راكاتها . ولفتات فلتاتها وجذبات عذباتها . فما زالت تقلع بمقالعها . وتقرع بمقارعها وتمتح بأشطانها . وتمرح في ارسانها . وتصدم . وتهدم . وتصرع . وتصدع . وتنهز بدلائها . وتجهز ببلائها . وتحل تركيب الجلاميد بأفراد جلاميدها . وتفل شمل المباني بتفريقها وتبديدها وتقوض القواعد بضربها من اساها . وتنقض المعاقد بجذبها في أمراسها . وتشفه

الموارد بشربها من كأسها . حتى تـركت السـور سـورا . وجعلت الذاب عنه محسورا . وعاد العدو من نظمه المبتور مبتورا . وخـرق الخندق وحفز الزحف . وظهر للاسلام الفتح وللكفر الحتف . واخذ الذقب . وسهل الصعب . وبذل المجهود . وحصل المقصود . وكمل المراد . وكلم المراد . وثغر الثغـر . وأمـر الأمـر . وأربـى الأرب . واستتب السبب وخاف القوم الوقـم . واسـتعاضوا مـن الصحة السقم . واسلم البلد وقطع زنار خندقه . وبرز ابن بـارزان ليأمن من السلطان بموثقه . وطلب الامان لقومه . وتمنع السـلطان وتسامى في سومه . وقال لا أمن لكم ولا أمان . وما هـو الا أن نديم لكم الهوان . وغدا نملككم قسرا . ونوسعكم قتلا . ونسـفك مـن الرجال الدماء . ونسلط على الذرية والنسـاء السـباء . وابـى في تأمينهم الا الاباء . فتعرضوا للتضرع . وتخوفوا وخـوفوا عاقبـة التسرع وقالوا اذا آيسنا من أمانكم . وخفنا من سـلطانكم . وخبنا من احسـانكم . وأيقنا ان لا نجـاة ولا نجـاح . ولا صـلح ولا صلاح . ولا سلم ولا سلامة . ولا نعمة ولا كرامة . فانا نسـتقتل فنقاتل قتال الدم . ونقابل الوجود بالعدم . ونقدم اقدام المسـتشري بالشر . ونقتحم اقتحام المستضري من الضر . ونلقي انفسـنا على النار . ولا نلقي بأيدينا الى التهلكة والعار . ولا يجـرح واحـد منا حتى يجرح عشرة . ولا تضمنا يد الفتك حتى تـرى ايدينا بـالفتك منتشرة . وانا نحرق الدروب ونخرب القبة . ونترك عليكم في سـبينا السبه . ونقلع الصخرة . ونوجدكم عليها الحسرة . ونقتل كل مـن عندنا من اسارى المسلمين وهم الوف . وقـد عرف ان كلامنا مـن الذل عزوف وللعـز الوف . وامـا الامـوال فإنا نعـطيها ولا نعطيها . وإمـا الذراري فـانا نسـارع الى اعدامهـا ولا نستبطيها . فأية فـائدة لكم في هـذا الشـح وكل خسر لكم في هـذا الربح . ورب خيبة جاءت من رجاء النجح . ولا يصلح السوء سوى الصلح . ورب مدلج اضله ظلام الليل قبل اسـفار الصـبح . فعقـد السـلطان محضرا للمشـورة . وأحضر كبـراء عسـاكره المنصـورة . وشـاورهم في الأمـر . وحـاورهم في السر

والجهر . واستطلع خبايا ضمائرهم . واستشكف خفايا سرائرهم . واستورى زندهم . واستعلم ما عندهم . وراوضهم على المصلحة المترجحة . وفاوضهم في المصالحة المربحة . وقال ان الفرصة قد امكنت فنحرص في انتهازها . وأن الحصة قد حصلت وتستخير الله في احرازها . وأن فاتت لاتستدرك . وان افلتت لا تملك . فقالوا قد خصك الله بالسعادة . واخلصك لهذه العبادة . ورأيك حاشد . وكلنا لك في اغتنام فتح هذا الموضع الشريف مناشد . واستقر بعد مراودات ومعاودات . ومفاوضات وتفويضات وضراعات من القوم وشفاعات . على قطيعة تكمل بها الغبطة . وتحصل منها الحوطة اشتروا بها منا انفسهم وأموالهم وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم . على انه من اعجز بعد اربعين يوما عما لزمه . أو امتنع منه وما سلمه . ضرب عليه الرق . وثبت في تملكه لنا الحق . وهو عن كل رجل عشرة دنانير وكل امراة خمسة وكل صغير او صغيرة ديناران . ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدما الداوية والاسبتار في الضمان . وبذل ابن بارزان ثلاثين الف دينار عن الفقراء . وقام ابالاداء ولم يذكل عن الوفاء . فمن سلم خرج من بيته آمنا . ولم يعد اليه ساكنا . وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة . وردوه بالرغم رد الغصب لا الوديعة . وكان فيه أكثر من مائة الف انسان . من رجال ونساء وصبيان . فأغلقت دونهم الأبواب . ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم الذواب . ووكل بكل باب أمير . ومقدم كبير . يحصر الخارجين ويحصي الوالجين فمن استخرج منه خرج . ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج . ولو حفظ هذا المال حق حفظه . لفاز منه بيت المال بأوفر حظه . لكنما تم التفريط . وعم التخليط . فكل من رشا مشى . وتذكب الامناء نهج الرشد بالرشا . فمنهم من ادلي من السور بالحبال . ومنهم من حمل مخفيا في الرحال . ومنهم من غيرت لبسته فخرج بزي الجند . ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد . وكانت في القدس ملكة رومية مترهبة . في عبادة

الصليب متصلبة . وعلى مصابها به متلهبة . وفي التمسك بملتها متعصبة . انفاسها متصاعدة للحزن . وعبراتها منحدرة تحدر القطرات من المزن ولها حال ومال واشياء واشياع ومتاع واتباع . فمن عليها السلطان وعلى كل من معها بالافراج . واذن في اخراج كل مالها في الاكياس والاخراج . فراحت فرحى . وان كانت من شجنها قرحى . وكانت زوجة الملك المأسور ابنة الملك اماري . مقيمة في جوار القدس . مع مالها من الخدم والخول والجواري . فخلصت هي بمن معها ومن تبعها . ومن أدعى انه ممن صحبها وشيعها . وكذلك الابرنساسة ابنة فليب ام هنفري اعفيت من الوزن . وتوفر مالها عليها في الخزن . واستطلق صاحب البيرة زهاء خمسمائة ارمني ذكر انهم من بلده . وان الواصل منهم الى القدس لأجل متعبده . وطلب مظفر الدين بن علي كوجك زهاء الف ارمني ادعي انهم من الرها . فأجراه السلطان من اطلاقهم له على ما اشتهى . وكان السلطان قد رتب عدة دواوين . في كل ديوان منها عدة من الذواب من المصريين ومنهم من الشاميين . فمن اخذ من أحد الدواوين خطا بالأداء انطلق مع الطلقاء . بعد عرض خطه على من بالباب من الامناء والوكلاء . فذكر لي من لا أشك في مقاله . انه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله . فربما كتبوا خطا لمن نقده في كيسهم . ويلبس امر تلبيسهم . فكانوا شركاء بيت المال لا امناء . وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والذفع وبقي من بقي تحت رق واسار • ينتظر به انقضاء المدة المضروبة • والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة •

ذكر يوم الفتح وهو سابع عشري رجب

واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه المعراج . وتم بما وضح من منهاج النصر الابتهاج . وزاد من الالسنة بالدعاء والابتهال الالتهاج . وجلس السلطان للهناء . للقاء الأكابر والأمراء والمتصوفة والعلماء . وهو جالس على هيأة

التواضع وهيبة الوقار . بين الفقهاء واهل العلم جلسائه الأبرار . ووجهه بنور البشر سافر . وأمله بعز النجح ظافر . وبابه مفتوح ورفده ممنوح . وحجابه مرفوع وخطابه مسموع . ونشاطه مقبل . ومحياه يلوح . ورياه يفوح . ومحبته تروق ومهابته تروع . وآفاقه تضيء ، وأخلاقه تضوع . ويده لفيض امواء السخاء . وفض أفواه العطاء . ظاهرها قبلة القبل . وباطنها كعبة الأمل . قد حلت له حالة الظفر . وكأن دسته به هالة القمر . والقراء جلوس يقرأون ويرشدون . والشعراء وقوف ينشدون ويذشدون . والأعلام تبرز لتذشر . والاقلام تزبر لتبشر . والعيون من فرط المسرة تدمع . والقلوب للفرح بالنصرة تخشع . والألسنة بالابتهال بالله تضرع . والكاتب يذشي ويوشي ويوشع . والبليغ يسهب ويوجز ويضيق ويوسع . فما شبهت قلمي الا بشائر أري البشائر . ولا وجهت كلمي الا لطائف وحي اللطائف . وما ارسلت يراعي الا ليراعى الرسائل . ويشيع الفواضل . ويشبع القول . ويسبغ الطول ويطول بالحجة وان كان في حجمه قصر . ويصول باللهجة وان كان في هجمه حصر . ويسمن الملك به وهو نحيف . ويثقل الجيش به وهو خفيف . ويبدي بياض الغرة من سواد . ويجلو بهجة الضياء من محجة الظلمة . ويجري بالآجال والارزاق والمنع والاطلاق . والخلف والوفاق . والارقاق والاعناق . والعدة والانجاز . والجدة والاعواز والفتق والرتق . والرقع والخرق . وهو الذي يجمع الجيوش . ويرفع العروش . ويوحش المستأنس المستوحش . وينعش العاثر ويعثر المتنعش . يجري بالاعداء على الاعداء وبالايلاء للاولياء . فبشرت باقلامي اقاليم البشر ، وعبرت باعاجيبي عن عجائب العبر وملأت البروج بالدراري والدروج بالدرر . ورويت تلك البشر حتى اطابت ريا الري وسمر سمر قند . واطربت وحلت حتى فاقت القنديد والقند . وعلقت بفتح القدس بلاد الاسلام وزينت . وشرحت فضيلتها وبينت . واديت فريضة زيارتها وتعينت .

ذكر حالي في العود الى الخدمة

وكنت قد انقطعت من الصحبة لما عرض لي في المرض من النوبة فأقمت بدمشق اداوي مزاجي واداري منهاجي واعالج تدبيري وادبر علاجي الى ان وصل الخبر بان السلطان نزل على القدس فوجدت خفة في النفس وأذست بابلالي بعض الانس وامنت لو ثوقي بالصحة والاستقامة من النكس ، فاوجهت الى تلك الجهة وسرت بطاعة النفس المتنزهة ، وعصيان الطبيعة المنكرهة واخترت تعب السفر على راحة الاقامة ورأيت في ركوب طريق العطب وجه السلامة ووصلت بكرة السبت ثاني يوم الفتح بالسعد واليمن والنجح فوصلني السلطان عند وصولي باجلى بشاشة واحلى هشاشة وسرى عنه وسر وابر وبر وقال:اين كنت.ولم ابطأت.وحيث اصبت في المجيء فما اخطأت وقد كنا في انتظارك.والسؤال عن اخبارك.وهذا اوان احسانك.فاين احسان اوانك.فاجر بنانك بجرأة بيانك.واجر في ميدانك.وما للبشائر الا واصفها.وللفرائد الا راصفها . وللفصاحة الا قسها . وللحصافة الا قيسها .

وكان قد جمع امس كتاب دواوينه على انشاء كتب ما ارتضاها . واقتضاب معان وما اقتضاها ، وكانوا سألوه في كتاب الديوان العزيز.فقال لهذا من هو اقوم به وعناني.فلما راني ناداني واستدناني • فصرفت الى امتثال أمره عناني • وسلم إلى الكتب التي كتبوها . بالالفاظ التي رتبوها . وقال :
غيرها . ولاتسيرها . وغرضه اني اعدل معوجها . وابدل مثبجها . وافترع المعنى البكر للفتح البكر . واوشح ذكر اياته بايات الذكر . فاستجديتها فما استجدتها . واستجدبتها فما استملحتها . وشممتها وبها سهك . وكشفتها وسترها هتك . وكانوا قد تعاونوا عليها وفيها لهم شرك . فشرعت في افتضاض الابكار . واقتضاء الافكار . واقتراح القريحة . واقتراء رحاب الكلم

الفصيحة . وافتتحت في بشرى الفتح . وكتاب الديوان العزيز واوردت المعنى البليغ في اللفظ الوجيز . ووشحت ووشعت وشعبت واشبعت . واطلت واطنبت . وصبت واصبت . واعجزت واعجبت . واطريت واطربت . وابعدت وابدعت ورصعت وصرعت . وطابقت وجانست . ووافقت وانست وبينت فضل عصر الامام الناصر على الاعصار السابقة بالابصار الصادقة . وان هذا الفتح ادخره الله لزمانه ومكن منه لمكانه . وسلط عليه بسلطانه . وحسنه لنا بإحسانه . فقد عبرت القرون الماضية على حسرته . وظفر وهو واشياعه بمسرته . وما حصل لنا الا ببركة ايامه وحركة اعتزامه . وذكرت من هذا كل ماراق وشاق . وذور الافاق . وان هذه الفتوح تفوح بارج نشره . وتحيى بحيا برة . فما ايمن ايامنا بايامه . وما اسعد امالنا بانعامه . وكتبت الى كل ذي طرف بمعنى طريف . ولفظ فصيح حصيف . وسهرت تلك الليالي حتى نظمت اللآلي . وحليت المعالي . وقرحت المعادي . وفرحت الموالي . وسارت شواردي الى المشرق والمغرب معربة عن هذا الفتح المعرب عن النصر المذهب . وبشرت المسجد الحرام بخلاص المسجد الاقصى وتلوت : (شرع لكم من الدين ماوصى)(الشورى ٤٢) وهنأت الحجر الاسود بالصخرة البيضاء . ومنزل الوحي بمحل الاسراء . ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والانبياء . ومقام ابراهيم بموضع قدم محمد المصطفى صلى الله عليه وعليهم اجمعين . وادام اهل الاسلام بشرف بيتيه مستمتعين . وتسامع الناس بهذا النصر الكريم . والفتح العظيم فوفدوا لزيارته من كل فج عميق . وسلكوا اليه في كل طريق . واحرموا من البيت المقدس الى البيت العتيق . وتنزهوا من ازهار كراماته في الروض الانيق .

ذكر ماجرى عليه حال الفرنج في خروجهم من القدس

وشرع الافرنج في بيع الامتعة واستخراج ذخائرهم المودعة . وباعوا بالمجان في سوق الهوان . وتقاعد الناس بهم فابتاعوها

بارخص الاثمان . وباعوا بأقل من دينار كل مايساوى اكثر من عشرة . وجدوا في ضم ماوجدوا من امور لهم منتشره. وكذسوا كنائسهم . واخذوا من نفائسهم . ونقلوا منها الذهبيات والفضيات . من الاواني والقناديل والحريريات والمذهبات . من الستور والمناديل . ونقضوا من الكنائس الكنائن . واستخرجوا من الخزائن الدفائن . وجمع البطرك الكبير كل ماكان على القبر من صفائح التبر ومصوغات العسجد ومصنوعات اللجين . وجمع ماكان في قمامة من الجنسين والنسجين . فقلت للسلطان،هذه اموال وافره. واحوال ظاهرة . تبلغ مائتي الف دينار . والامان على اموالهم لاامـوال الكنائس والاديار . فلا تتركها في ايدي هؤلاء الفجار . فقال اذا تأولنا عليهم نسبونا الى الغدر وهم جاهلون بسر هذا الامر فنحن نجريهم على ظاهر الامان ولانتركهم يرمون اهل الايمان بذكث الايمان بل يتحدثون بما افضناه من الاحسان . فتركوا ماثقل وحملوا ماعز . وخف ونفضوا من تراب تراثهم وقمامة قمامتهم الكف وانتقل معظمهم الي صور .وكتفوا بالديجور . وبقى منهم زهاء خمسة عشر الفا امتنعوا من مشروع الحق فاختصوا بمشروط الرق . فأما الرجال وكانوا في تقدير سبعة آلاف فانهم الفوا ذلا لم يكونوا به بالاف . فاقتسمتهم ايدي السبي أيدي سبأ . وتفرق الغانمون بجمعهم في الوهاد والربا . واحصيت النساء والصبيان ثمانية الاف نسمة . عادت بيننا مقتسمة • واصبحت ببكائها وجوه الدولة مبتسمة . فكم محجوبة هتكت . ومالكه ملكت . وعزباء نكحت . وعزيزة منحت . وبخيلة تسمحت . وخيبة توقحت . ومجدة مزجت . ومصونة ابتذلت .وفارغة شغلت • وعقيلة امتهنت . وجميلة امتحنت . وعذراء افترعت . وشماء فرعت . ولمياه رشفت . وظمياء فرشت . وريضة أصحبت . ورضية أصبحت . فكم تسرى منهن سري . وتجرأ عليهن جري . وقضى وطره عزب . وذفى نهمه سغب • وفثأ سورته شغب . وكم غانية استخلصت . وغالية استرخصت . ووالية اعتزلت . وعالية استنزلت .ووحشية صيدت، وعرشية قيدت . ولما تقدس القدس من رجس الفرنج اهل الرجز .

وخلع لباس الذل ولبس خلع العز . ابى النصارى بعد اداء القطيعة ان يخرجوا . وتضرعوا في ان يسكنوا ولايزعجوا . وبذلوا خدما وخدموا ببذول . وقابلوا كل مالزموا به بالتزام وقبول . واعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وشحت افواهم بما شجاهم فزاد شجاهم وهم فاغرون . ودخلوا في الذمة . وخرجوا الى العصمه . وشغلوا بالخدمه . واستعملوا في المهنه . وعدوا المنحة في تلك المحنة .

ذكر مااظهره السلطان في القدس من الحسنات ومحاه من السيئات

ولما تسلم السلطان القدس امر باظهار المحراب . وحتم به امر الايجاب . وكان الداوية قد بنوا في وجهه جدارا وتركوه للغلة هريا . وقيل كانوا اتخذوه مستراحا عدوانا وبغيا . وكانوا قد بنوا من غربي القبلة دارا وسيعة . وكنيسة رفيعة . فاوعز برفع ذلك الحجاب . وكشف النقاب . عن عروس المحراب . وهدم ماقدامه من الابنية . وتنظيف ماحوله من الافنية . بحيث يجتمع الناس في الجمعة . في العرصة المتسعة . ونصب المنبر واظهر المحراب المطهر • ونقض مااحدثوه بين السواري . وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبواري . وعلقت القناديل . وتلي التنزيل . وحق الحق وبطلت الاباطيل . وتولى الفرقان وعزل الانجيل . وصفت السجادات . وصفت العبادات . واقيمت الصلوات . واديمت الدعوات . وتجلت البركات . وانجلت الكربات • وانجابت الغيابات . وانتابت الهدايات . وتليت الايات . واعليت الرايات . ونطق الاذان وخرس الناقوس . وحضر المؤذنون وغاب القسوس . وزال العبوس والبوس . وطابت الانفاس والنفوس . واقبلت السعود وادبرت النحوس . وعاد الايمان الغريب منه الى موطنه . وطلب الفضل من معدنه . وورد القراء وقرىء

الاوراد . واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاوتاد . وعبد الواحد . ووحد العابد . وتوافد الراكع والساجد . والخاشع والواجد . والزاهي والزاهد . والحاكم والشاهد . والجاهد والمجاهد . والقائم والقاعد • والمتهجد الساهد . والزائر والوافد . وصدح المنبر • وصدع المذكر . وانبعث المعشر . وذكر البعث والمحشر . واملى الحفاظ . واسلى الوعاظ . وتذاكر العلماء وتناظر الفقهاء . وتحدث الرواة . وروى المحدثون . وتحذف الهداة وهدى المتحذفون . واخلص الداعوان ودعا المخلصون . واخذ بالعزيمة المترخصون . ولخص المفسرون • وفسر الملخصون . وانتدى الفضلاء وانتدب الخطباء . وكثر المترشحون للخطابة . المتوشحون بالاصابة . المعروفون بالفصاحة •**الموصوفون بالحصافة** فما فيهم الا من خطب الرتبة • ورتب الخطبة . وانشأ معني شائقا . ووشى لفظا رائقا . وسوى كلاما بالموضع لائقا . وروى مبتكرا من البلاغة فائقا . وفيهم من عرض علي خطبته . وطلب مني نصبته • وتمنى ان ترجح فضيلته . وتنجح وسيلته . وتسبق منيته فيها امنيته . وكلهم طال الى الالتهاء بها عنقه . وسال من الالتهاب عليها عرقه . ومامنهم الا من يتأهب ويترقب . ويتوسل ويتقرب . وفيهم من يتعرض ويتضرع . ويتشوف ويتشفع . وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه . وضرب في اخماسه اسداسه . ورفع لهذه الرياسة راسه . والسلطان لايعين . ولايبين . ولايخص . ولاينص . ومنهم من يقول ليتني خطبت في الجمعة الاولى . فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان . اصبح الناس يسألون في تعيين الخطيب السلطان • وامتلأ الجامع • واحتفلت المجامع • وتوجست الابصار والمسامع • وفاضت لرقة القلوب المدامع • وراعت لحلية تلك الحالة وبهاء تلك البهجة الروائع • وشاعت من سر السرور بلبس حبر الحبور الشوائع • وغصت بالسابقين اليها المواضع • وتوسعت العيون • وتقسمت الظنون • وقال الناس:هذا يوم كريم • وفضل عميم • وموسم عظيم • هذا يوم تجاب فيه الدعوات • **وتصاب البركات** • وتسال العبرات • وتقال العثرات • ويتيقظ الغافلون • ويتعظ العاملون • وطوبى لمن عاش • حتى حضر هذا اليوم الذي فيه

انتعش الاسلام وارتاش • وما افضل هذه الطائفة الحاضرة • والعصبة الطاهرة • والامة الظاهرة • وما اكرم هذه النصرة الناصرية • والاسرة الامامية • والدعوة العباسية • والمملكة الايوبية • والدولة الصلاحية • وهل في بلاد الاسلام اشرف من هذه الجماعة • التي شرفها الله تعالى بالتوفيق لهذه الطاعة • وتكلموا فيمن يخطب • ولمن يكون المنصب • وتفاوضوا في التفويض • وتحدثوا بالتصريح والتعريض • والاعلام تعلى • والمنبر يكسى ويجلى • والاصوات ترتفع • والجماعات تجتمع • والافواج تزدحم • والامواج تلتطم • وللعارفين من الضجيج • ما في عرفات الحجيج . حتى حان الزوال . وزال الاعتدال • وحيعل الداعي (١) • واعجل الساعي • فنصب السلطان الخطيب بنصه • وابان عن اختياره بعد فحصه • واوعز الى القاضي محيي الدين ابي المعالي محمد بن زكي الدين على القرشي بان يرقى ذلك المرقى • وترك جباه الباقين بتقديمه عرقى • فأعرته من عندي اهبة سوداء من تشريف الخلافة • حتى تكتمل له شرف الافاضة والاضافة . فرقى العود . ولقى السعود . واهتزت اعطاف المنبر . واعتزت اطراف المعشر . وخطب وانصتوا . ونطق وسكتوا . وافصح واعرب . وابدع واغرب . وابدع واغرب . واعجز واعجب . واوجز واسهب . ووعز في خطيبته . وخطب بموعظتيه . وابان عن فضل البيت المقدس وتقديسه . والمسجد الاقصى من اول تأسيسه . وطهيره بعد تنجيسه . واخراس ناقوسه واخراج قسيسه . ودعا للخليفة والسلطان . وختم بقوله تعالى « ان الله يأمر بالعدل والاحسان . (النحل ٩٠) ونزل وصلى في المحراب . وافتتح ببسم الله من أم الكتاب . فائتم بتلك الامة . وثم نزول الرحمه . وكمل وصول النعمة . ولما قضيت الصلاة انتشر الناس . واشهر الايناس . وانعقد الاجتماع واطرد القياس . وكان قد نصب للوعظ تجاه القبلة سرير . ليفرعه كبير . فجلس عليه زين الدين ابو الحسن علي بن نجا . فذكر من خاف ومن رجا . ومن سعد ومن شقي ومن هلك ومن نجا . وخوف بالحجة ذوي الحجا . وجلا بذور عظاته من ظلمات الشبهات مادجا . واتى بكل عظه للراقدين موقظة . وللظالمين

محفظة . ولاولياء الله مرققة ولاعداء الله مغلظة . وضج المتباكون . وعج المتشاكون . ورقت القلوب . وخفت الكروب . وتصاعدت الزفرات . وتحدرت العبرات . وتاب المذنبون . واناب المتحوبون . وصاح التوابون . وناح الاوابون • وجرت حالات جلت . وجلوات حلت . ودعوات علت • وضراعات قبلت . وفرص من الولاية الالهية انتهزت . وحصص من العناية الربانية احرزت . وصلى السلطان في قبة الصخرة والصفوف على سعة الصحن بها متصله . والامة الى الله بدوام نصره مبتهلة . والوجوه الموجهة الى القبلة عليه مقبلة . والايدي الى الله مرفوعة . والدعوات له مسموعة . ثم رتب في المسجد الاقصى خطيبا استمرت خطبته واستقرت نصبته .

وصف الصخرة المعظمة عمرها الله

واما الصخرة فقد كان الفرنج قد بذوا عليها كنيسة ومذبحا . ولم يتركوا فيها للايدي المتبركة ولاالعيون المدركة ملمسا ولامطمحا . وقد زينوها بالصور والتماثيل . وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الانجيل . وكملوا بها اسباب التعظيم والتبجيل . وافردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة . باعمدة الرخام منصبه . وقالوا محل قدم المسيح . وهو مقام التقديس والتسبيح . وكانت فيها صور الانعام . مثبتة في الرخام . ورأيت في تلك التصاوير . اشباه الخنازير . والصخرة المقصودة المزوره بما عليها من الابنية مستوره .

وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة • فامر السلطان بكشف نقابها . ورفع حجابها . وحسر لثامها . وقشر رخامها . وكسر رجامها ونقض بنائها . وفض غطائها . وابرزها للزائرين . وأظهرها للناظرين . ونزع لبوسها . وزفاف عروسها . واخراج درها من الصدف . واطلع بدرها من السدف . وهدم سجنها وفك رهنها .

واراءة حسنها . واضاءة يمنها . وابداء وجهها الصبيح . وجلاء شرفها الصريح . وردها الى الحالة الحالية .

واشرقت القناديل من فوقها نورا على نور . وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد والاعتناء بها الى الان كل يوم في مزيد . ورتب السلطان في قبة الصخرة اماما من احسن القراء تلاوة . وازينهم طلاوة . وانداهم صوتا . واسماهم في الديانة صيتا . واعرفهم بالقراءات السبع بل العشر . واطيبهم في العرف والذشر . واغناه واقناه . واولاه لما ولاه . ووقف عليه دارا وارضا وبستانا . واسدى اليه معروفا دارا واحسانا . وحمل اليها والى محراب المسجد الاقصى مصاحف وختمات . وربعات معظمات . ولاتزال بين ايدي الزائرين على كراسيها مرفوعة . وعلى اسرتها موضوعة . ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت المقدس عامه • قومه تشمل مصالحها ضامه • فما ترتب الا العارفون العاكفون القائمون بالعبادة الواقفون • فما ابهج ليلها وقد حضرت الجموع • وزهرت الشموع • وبان الخشوع . ودان الخضوع . ودرت من المتقين الدموع • واستعرت من العارفين الضلوع . فهناك كل ولي يعبد ربه ويأمل بره . وكل اشعث اغبر لايوبه له لو اقسم على الله لابره • وهناك كل من يحيي الليل ويقومه • ويسمو بالحق ويسومه • وهناك من يختم القرآن ويرتله . ويطرد الشيطان ويبطله . ومن عرفته لمعرفته الاسحار • ومن الفته لتهجده الاوراد والاذكار . وماا سعد نهارها • حين تستقبل الملائكة زوارها • وتلحف الشمس اذوارها أذوراها• وتحمل القلوب اليها اسرارها • وتضع الجناة عندها اوزارها • وتستهدي صبيحة كل يوم منها اسفارها • وماظهر من تولى اظهارها• واطهر من باشر اطهارها • وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعا وحملوا منها الى قسطنطينية . ونقلوا منها الى صقلية . وقيل باعوها بوزنها ذهبا . واتخذوا ذلك مكسبا . ولما ظهرت ظهرت مواضعها . وقطعها القلوب لما بانت مقاطعها . فهي الان مبرزة للعيون بحزها . باقية على الايام بعزها .

مصونة للاسلام في خدرها وحرزها . وهـذا كله تـم بعـد انفصـال السلطان . والشروع في العمران • وامر بترخيم محراب الاقصى وان يبالغ فيه ويستقصى . وتنافس ملوك بني ايوب فيما يؤثـر بهـا مـن الاثار الحسنة . وفيما يجمع لهم ود القلوب وشـكر الالسـنة . فمـا منهم الا من اجمل واحسن . وفعل ماامكن . وجلى وبين وحلى وزين.

واشـفق وانفـق . واغنى واقنى . واعتني وابتني . ووفى واوفي . واصفى واضفى . واتى الملك العادل سيف الدين ابو بكر . بكل صنع بكر . موجب لكل شكر . وكل فعل جميل ورفد جزيل . ومن جلى ومنح جليل . ومكرمة حميدة . ومحمدة كريمـة . وفضـيلة بهـا تـرجع . ووسيلة بها نجح . واتي الملك المظفر تقي الدين عمر . بكل ماعم بـه العرف وغمر . ونهى وامـر . وبنى وعمـر . ومـن جملة افعـاله المشكورة • ومكرماته المشهورة • انه حضر يوما في قبة الصـخرة . مع جماعة من السراة الاسرة . ومعه من ماء الورد احمال . ولاجـل الصدقة والرفد مال . فانتهز فرصة هـذه الفضـيلة التـي ابتـكرها بالافتراض . وتولى بيده كنس تلك الساحات والعراص . ثم غسـلها بالماء مرارا حتى تطهرت . ثم اتبع الماء بماء الورد صبا حتى تعطرت.

وكذلك طهر حيطانها . وغسل جدرانها . ثم اتـى بمجـامر الطيب فتبخرت . وتوضعت وتعرفت وفغمت مناشق أهل الهدى • وأرغمت آناف العدى • ومازال مع قوته • في تطهير البقعـة المبـاركة طـول يومه • حتـى تيقنت طهـارتها • وبينت عمـارتها • وراقـب نضارتها • ووقفت عليها الاستحسان نظارتها • ثم فـرق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق • وافتخر بأن فـاق الكرام بـالانفاق • وجاء الملك الافضـل نور الدين علي .بـكل نور جلي • وكرم ملي • واحسان سني • وانعـام هني وعرف زكي وعرف ذكي • وعطـاء مبتدع • وانطلق بحمده الالسن • وبسط بها الصنيعة وفرش فيهـا البسط الرفيعة • وهدي واهـدى • واعاد بعـد مـاابدى • وانار واسدى • وافاض الندى • وفض الجدا • ونفض الاكياس • حتى خلنا به الانفاض والافلاس • وسيأتي ذكر ماعتمده من بناء اسوار القدس وحفر خنادقه • واعجز بما اعجـب مـن سـوابق معـروفة

ولواحقة • مالم يشق احد فيه غبارة • ولامك سابق فيه مضماره • واما الملك العزيز عثمان • فانه اتى بالاحسان الذي استظهر به الايمان • وذلك انه لما عاد الى مصر • وقد شاهد الفتح والنصر • ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها • ولم ير بعد حصولها به نقلها • وكانت احمالا باموال • واثقالا كجبال • وذخائر وافية • وعددا واقية ودروعا سوابغ • ونصولا دوامغ • وخوذا وترائك • ورماحات ونيازك • وقنا وقنابل • وصواقل وذوابل • وجروخا وقسيا • ويمانيا وهنديا • يزنيا • ورديني ومشرفيا • وزيارات • ونفاطات وقطاعات• وعدد النقوب . وجميع ادوات الحروب . فاستظهرت بها المدينة . وتوثقت بها عراها المتينة . وكان من جملة ماشرط على الفرنج ان يتركوا لنا خيلهم وعدتهم . ويخرجوا قبل ان يستوفي الباقون في اداء القطيعة مدتهم . فتوفرت بذلك عدد البلد . واستغني بذلك عما يصل من المدد .

ذكر محراب داود عليه السلام . وغيره من المشاهد الكرام وتبطيل الكنائس . وانشاء المدارس

واما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الاقصى فانه في حصن عند باب المدينة منيع-وموضع عال رفيع . وهو الحصن الذي يقيم به الوالي . فاعتنى السلطان باحواله الحوالي ورتب له اماما . ومؤذنين وقواما . وهو بمثابة الصالحين . ومزار الغادين والرائحين . فاحياه وجدده . ونهج لقاصديه جدده . وامر بعمارة جميع المساجد . وصون المشاهد وانجاح المقاصد . واصفاء الموارد للقاصد والوارد . وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام . وكان ينتابهما فيها الانام . وكان الملك العادل نازلا في كنيسة صهيون . واجناده على بابها مخيمون . وفاوض السلطان جلساؤه من العلماء الابرار والاتقياء الاخيار في مدرسة للفقهاء الشافعية . ورباط للصلحاء الصوفية . فعين للمدرسة الكنيسة

المعروفة بصند حنة عند باب اسباط • وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط . ووقف عليهما وقوفا . واسدى بذلك الى الطائفين معروفا . وارتاد ايضا مدارس للطوائف . ليضيفها الى ماا ولاه من العوارف . وامر باغلاق ابواب كنيسة قمامة • وحرم على النصارى زيارتها ولاالاقامة • وتفاوض الناس عنده فيها •

فمنهم من اشار بهدم مبانيها .وتعفية آثارها . وتعمية نهج مزارها . وإزالة تماثيلها . وإزاحة أباطيلها . واطفاء قناديلها . واعفاء اناجيلها • واذهاب تساويلها . واكذاب اقاويلها . وقالوا اذا هدمت مبانيها . وألحقت باسافلها أعاليها . ونبشت المقبرة وعفيت . وأخمدت نيرانها وأطفيت . ومحيت رسومها ونفيت . وحرثت أرضها . ودمر طولها وعرضها . اذقطعت عنها امداد الزوار . وانحسمت عن قصدها مواد اطماع أهل النار . ومهما استمرت العمارة . استمرت الزيارة . وقال أكثر الناس لافائدة في هدمها ولا هدها . ولايؤذن بصد ابواب الزيارة عن الكفرة وسدها . فان متعبدهم موضع الصليب والقبر لامايشاهد من البناء . ولاينقطع عنها قصد اجناس النصرانية ولونسفت ارضها في السماء . ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الاسلام أقرهم على هذا المكان . ولم يأمرهم بهدم البنيان .

ومما كتبته الى الديوان العزيز مجده الله للبشارة بفتح القدس مع الرسول ضياء الدين الشهر زوري من رسالة :

قد سبقت البشائر بما من الله به من الفتح العظيم . والنصر العميم . والعرف الجسيم . والفضل الوسيم . واليوم الاغر الأعز الكريم . والشرف الذي ذخره الله لهذا العصر ليفضله . على الاعصار . وأراد تأخير فخاره الى هذه الايام ليكون بها تاريخ الفخار . فقد اعجز الملوك عن اقتضاء نصرته . وافتضاض عذرته . وخص من اجراه على يده بسمو قدره ونمو قدرته . وأعاد به القدس الى قدسه . وأظهره وطهره من رجز الكفر ورجسه . وقد رجع

الاسلام الغريب منه إلى داره . وخرج قمر الهدى بـه مـن سراره . وذهبت ظلم الضلالة بأنواره . وعادت الأرض المقدسة الى مـاكانت موصوفة به من التقديس . وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السرى ومناخ التعريس . وقد اقصي عن المسـجد الاقصى الاقصـون من الله الابعدون . وتـوافد اليه المصـطفون الاقـربون . والملائكة المقربون . وخرس الناقوس بزجل المسـبحين . وخـرج المفسـدون بدخول المصلحين . وقال المحـراب لأهله مـرحبا وأهـلا . وشـمل جماعة المسلمين من اقامة الجمعة والجماعة مـاجمع للاسـلام فيه شملا . ورفعت الأعلام العباسية على منبره فأخذت مـن بـره أوفى نصيب . وتلت بالسنة عذبـة : « نصر مـن الله وفتـح قـريب» . (الصف ١٣) وغسلت الصخرة المباركة بـدموع المتقين مـن دنس المشركين . وبعد أهل الاحد من قربها بقرب الموحدين . فذكر بها ما كاد ينسي من عهد المعراج النبوي . وقامت بدلالتها براهين الاعجـاز المحمدي . وصافحت الايدي منها موضع القدم . وتجـدد لهـا مـن البهجة والرسالة ما كان لها في القدم . فهو ثـاني المسـجدين . بـل ثالث الحرمين . فليهن البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من الأسر . واسفار صبح الاسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر.وتـطهير مواقف الانبياء صلوات الله عليهم من أدناس الارجاس . وتضـوع أرج الرجاء في أرجائه بعد اليأس . فالحمد لله الذي أبدل الايحـاش بالايناس . ونزع عنه بافاضة خلع الرحمـة عليه لبـاس البـاس . وجعـل عصر مـولانا أمير المؤمنين صـلوات الله عليه على الاعصر مفضلا . وكمل بهذا الفتح الشريف شرف زمانه فأصبح فخـر الدين والدنيا به مكملا . ويسر ببركات أيامـه فتـح البـلاد السـاحلية بأسرها . وعجل هلاك هذه الطائفة الطـاغية مـن الفـرنج بقتلهـا وأسرها . ولقد حـل الكفـر عروة عروة . وهـد ذروة ذروة وعادت حباله رثاثا . وعقوده انكاثا . ومساكنه اجداثا . وصار حديثا بعـد أن شوهد اهل الذمة أحـداثا . فـالرتاج مسـتفتح . والرجـاء مستنجح . والبلاد مستخلصه . والقيم الغوالي منها بسوم العوالي مسترخصة . والعقائل مفتضه . والمعاقل مذفضـة . ومناهـل المنى

بمياه النجاح مرفضه . ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف أهل الايمان منقضه . والثغور مبتسمه . والأمور منتظمة . والحصون متسلمة . والخصوم مذعنة مستسلمة . وأرض الكفر ينقصها الاسلام كل يوم من أطرافها . بل يستولى على اوساطها وأكنافها ويعيد إلى الطاعة كرها مذهب خلافها . ولقد أينع زرعها وثمرها من رؤوس المشركين وهذا أوان حصادها وقطافها . والنعمة بحمد الله عظيمة . والموهبة وأن خصت هذا الاقليم فهي في جميع أقاليم المسلمين عميمة . فلو شرح ما لهذا الفتح من جلالة العظمة ودلالة المكرمة لكبا قلم البليغ في مضمار البيان ولم يبلغ مدى : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » (الكهف:١٠٩) والقاضي ضياء الدين القاسم الشهر زوري قد توجه لهذه النعمة واصفا . وعندما يأمر به من إنهاء البشرى بها واقفا . وأولى من وصف العرف من كان بأوصافه عارفا . وأحق من شرح الحق والحقيقة من تفي بشرح الصدور مصادر شرحه . ويفتح على الاسلام أبواب الهناء بانهاء ماتسنى من فتحه . ويحدث وهو الضياء بإسفار صبحه .

عادالحديث الى ما جرى بعد فتح القدس

واقام السلطان على القدس حتي تسلم مابقربها من حصون . واستباح كل ما للكفر بها من مصون . ورحل ولده الملك الافضل قبله الى عكا عائدا . وعن حوزتها ببأسة وجوده ذائدا . ثم تبعه الملك المظفر فرحل . وسار الى عكا . وبها نزل . ثم عمد السلطان الى ما جمعه ففرقه . وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه . وفرضه بعوارفه . وفضه في مصارفه . فسد خلة المعيل . وأسهم منه ابن السبيل . وحمل به عن الغارم . واحيى به سنن المكارم . ووضعه في أهله . وأحله في محله . وصرفه في حله . وقدم التوسعة على ذوي الاضافة . والانفاق في أهل الفاقه . واجنى الاجناد منه مقاطف .

وجعل للمجاهدين منه وظائف . وابقاه بافنائه ذخرا للاخرة . وكسبا للمحامد الفاخرة . فاكثروا عذله على بذله . واستكثروا ما فضه بفضله . فقال كيف أمنع الحق مستحقيه . وهذا الذي أنفقه هو الذي أبقيه . واذا قبله مني المستحق فالمنة له علي فيه . فانه يخلصني من الامانة ويطلقني من وثاقها . فان الذي في يدي وديعة احفظها لذوي استحقاقها . فما عاد الوفد إلا بوفر ودثر . والافاضة في نظم من حمده ونثر . وحاز كل ذي فضيلة منه فضلا . وتفيأ كل فئة ظلا . وكثر السائلون بالفضائل . والقائلون بالوسائل . والقاصدون بالقصائد . والوافدون بالفوائد . والواردون بالفوارد . والسابقون بالشوافع والشافعون بالسوابق . والسالكون للطرائق . والمالكون للحقائق . فما ترى الا قارئا بالسان الفصيح . وراويا للكتاب الصحيح . ومتكلما في مسألة . ومتفحصا عن مشكلة وموردا لحديث نبوي . وذاكرا لحكم مذهبي . وسائلا عن لفظ لغوي . ومعنى نحوي أو مقرضا بقريض . أو معرضا بتصريح أو مصرحا بتعريض أو جالبا لمدحه . أو طالبا لمنحه . او مستضعفا بفاقه . او مستسعفا بافاقه . أو ناشدا بنشيده . أو مسمعا بتغريب وتغريد . وما فيهم الا من أحظي بسهم . أو ارضي بقسم . وأصيب وأجيب . واجيز بتقرير وتقريب ، فقيل له لو نخرت هذا المال للمآل . لشفيت به مايقع من الاعتلال . وكفيت بالحقيقة ما يسنح من الاختلال . فقال أملي قوي من الله الكافل بنجح الآمال . وجمع الاسراء المطلقين . وكانوا ألوفا من المسلمين . فكساهم وأساهم . وواساهم . وأذهب أساهم . فانطلق كل منهم إلى وطنه ووطره . ناجيا من ضرره . ووضره ومكث السلطان عليه مقيما . للنظر في مصالحه مستديما . فقيل ما قعودك عن صور . فأنهض اليها عسكرك المنصور . وانت تدخلها يوم وصولك . وتحظى منها بمرادك وسؤالك ، فآذو السير . وآخو الخير . وأحصر الخبر . واحظر التأخير . وفي تعجيل النهضة . تحصيلها في القبضة . وفي بدار الالمام بدارها . بشرى أهلة الفتوح المقمرة بابدارها . فأسر بالعسكر وأسرع . واقطع عن الكفر تلك الاعمال وأقطع . وأكثر من كان يستحثه . وعلى النهوض يبعثه . الامير علي أبو أحمد المعروف

بالمشطوب . وكان من أكابر الامراء الكافين للخطوب . الكافين في الحروب . وكانت معه صيدا وبيروت . وهما بقرب صور وقد أشفق ان فتحها يفوت . فرأى الحظ في الحض . وحرض على الفرض . ولم يفكر في قوتها بانتقال رجال الساحل إليها. وأنه يشق في هذا الوقت النزول عليها . وكان المركيس عند اشتغالنا بالقدس باحكام صور مشتغلا . وعلى الاستهتار بتحصينها مشتعلا . وقد استجد قدامها من البحر الي البحر خندقا . وجعل الطريق اليها مضيقا .واحكم اسباب الاحكام . وأخذ بالحزم في الاهتمام .

ذكر رحيل السلطان عن القدس على قصد حصار صور

ورحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان . وقد عنا لامره كل ناس ودان ودان .وودعه ولده عزيز مصر في اول منزله . وسايره لكراهية فراقه مقدار مرحلة .ثم اوصاه وشيعه واستصحب اخاه الملك العادل معه . مستظهرا بأخائه . ومستبشرا بآلائه . مستبصرا بآرائه . مستنصرا بمضائه مستغنيا بغنائه . وموفيا بوفائه . وهو بعقده يعقد وبحله يحل .وبشده يشد وبحلوله يحل . والعساكر بالفضاء فائضه .والخطوب الريضة رائضه . والى استنهاض النصر لانصارها ناهضة • ومن هواها انها في دأماء الدماء من أهل الكفر خائضة . فوصل الى عكا في أول شهر رمضان فخيم بظاهرها ظاهرا بخيمه .باهرا بتاخيره وتقديمه .قاهرا بشباه المبير . زاهرا بسناه المنير . جاهرا بسره . ظاهرا في بحره .وأقام أياما يتفكر ويتدبر . ويستشير ويستخير . والمشطوب يستعجله . ولا يمهله .ويحرض بالبعث . ويحذر من المكث . ويقول الفرصة تدرك بالحث . وتفوت باللبث . فسار لندائه ملبيا . ولجيش النصر معبيا . ولرأيه مقلدا . وبالله عز وجل

متأيدا . فوصل الى صور تاسع شهر رمضان يوم الجمعة . بالجحافل المحتفلة والجموع المجتمعة . فنزل بعيدا من سورها . سعيدا في ترتيب أمورها . مضروبة قبابه . مجذوبة عرابه . محجوبة بالبنود والجنود أرضه وسماؤه . مذشورة راياته منصورة آراؤه . خافقة على الاعداء عذبات عذابه . دافقة في ثرى النجح في الانحاء ثرات صوب صوابه.قد كست خيامه عري العراء . وفضت أشعة بيضه وسمره الفضة بالفضاء . واحتوت مضاربه المضيئة بالائه وآرائه على مضارب المضاء . وباحت استباحه حمى المشركين للموحدين بسر السراء . فمكث أياما حتى تواصل المدد . وتكامل العدد . واستحضر آلات الحصار . واستكثر من المجانيق الصغار والكبار .ثم تقدم اليها وخيم عليها الثاني والعشرين من الشهر يوم الخميس .في خميس يسير في الوشيج كالاسد في الخيس .ونزلت الذوازل المركسة من نزوله ونزاله بالمركيس .فوقع في الدردبيس .والعذاب البيئس . فكانما نفخ في صور صور . فحشر أهل جهنم وملأوا السور ٠. واتصلت زيارة الزيارات للجروح بالجروخ . وتوافت مناجاة المجانيق بالخدوش والشدوخ . وارسلت الحجارات حاجرة جاجزه . وألسنة أهل الرجس والرجز بالفحشاء راجزه . وكانت صور على السوء مستوية . وعلى كل من خرج من القدس وبلاد الساحل محتوية . فضجوا وارتجوا . وعاجوا وعجوا . ولجأوا ولجوا . ونصبوا على كل نيق منجنيقا .وشدوا من كل جانب ركنا وثيقا . وشدوا في الجبال . ومدوا في الحبال . ورموا من الشرافات الشرفات . بالشرور والافات . وسلب الحجار حجاها . وامت الامة وجاءها وجاها . فكم من رؤوس اطارت ٠ ونفوس ابارت . وبر خسفت . وبدر كسفت . وبحر نزفت . وطود نسفت . فحول السلطان الى قربها له خيمة صغيرة . وانهض بنات الحنايا بالمنايا عليها مغيرة . وصف الجفاتي . فصدف اتيها الاتي . وعارض بحرها بعرض بحره . ورد كيد الكفر من المنجنيق بما نصبه من المنجنيق في نحره . فاحبط اعمالهم باعماله . واهبط رجالهم برجاله . وقابل الابراج بالابراج . وحاول بالردى علاج العلاج . ووالاها حجارات وصخورا . حتى جعلت سور صور

سورا . وجد في امرها . واجاد في حصرها . ووصل اليه في تلك الايام . من قوي به ظهر الاسلام . ولده الملك الظاهر غياث الدين غازي . وهو الذي جل في سماحته وحماسته عن الموازن والموازي . فقدم مبارك القدم . متدارك النعم . عالي الهمم . غالي القيم . ومعه عسكر مجر لجب جلبه من حلب . قد استصحب البيض والسمر والبيض واليلب . فظهر من الملك الظاهر ما ملك به قبول القلوب واغرى سيفه بسفك دم الكفر المطلول المطلوب ، ورأى نصب خيمته وراء خيمة ابيه المنصوبة ، وجد في استرجاع مدينة الاسلام المغصوبة ، وقدم بين يديه كل حجار راجح ، وكل نقاب ناجح ، لصم الصفاح مصافح ، وكل جاندار جان در الردى للكفار ، وكل زراق رزق الجسارة على اهل النار بالنار ، وكل منجنيقي من جناته تقتبس ذبالة البسالة ، وكل جرخي رخي البال بالهدى لأصماء اهل الضلالة ، وكل رام رام النجم في الافق فراماه ، وكل همام هم بالخطب النازل فتحاماه ، وكل مقدام قرنه دام ، وكل ضرغام صريعه في رغام . وكل قمقام ضارب بصمصام ، وكل حام شارب بكأس حمام ، وكل ذمر مشيح ، لذمار الكفر مبيح ، ولروح الجد مريح ، ولذماء المزاح مزيح ، وكل فاتك لحبل الوريد باتك ، ولستر الحياة هاتك ، ولدم العداة سافك ، وكل شجاع الى الموت داع ، والى المجد ساع ، وللاسلام راع ، وللاشراك ناع ، وكل فارس للفوارس فارس ، وللذوابل في النحور غارس ، وفي اليوم العابس غير ناج ، وكل راجل لقهر العدو راج ، وبسر البأس مناج ، ومن شر الناس بشجاعته ناج ، وبباغت المنون لمن يلاقيه شاج ، وكل عتال عات ، ونجار ونشار ونحات ، وحداد وقين وكل زائر للعدى بحين . فاجتمعوا وزحفوا . وجفوا على القوم ورجفوا وأصموا وصمموا . وأوقدوا نارا واضرموا . وأطاروا من اعشاش الاقواس الى أوكار الاحداق أفراخا . واستصرخوا الاقدار لأقدارهم فحبتهم حين أحبتهم اصراخا . وغلظوا على الرقاب الغلاظ بالرقاق . وأولوا الشقاء لأولى الشقاق . وتساعدوا وتناصروا وتطاولوا وماتقاصروا ومافيهم الا من أبان عن جد . وأبان بجد . والان الشديد . وأعان

السديد . وافلح ففلح الحديد بالحديد . أوجد الجديد ومد المديد وصور مرتجة أبوابها. مرتجة أربابها. مغتصة جوانبها . ومرتصة عصائبها . مشحونة أبراجها مسجونة أعلاجها محصورة كلابها . محسورة ذئابها محشورة ثعالبها محشوة كتائبها. والمركيس بها متجهم . وأبليس عليه متحكم . وقد سقط في يده . وسخط لبلده . وارتبط بجلده واختلط بكمده . وغلت مراجل غلوائه وعدت غوائل عدوانه . وطاش وجاش وأوخش الأوباش والأوخاش(٢) . وتوشح بالشر وتوحش . وترشح للردى وتحرش . واشتعل بجمره . وبعل بأمره وضرى بضره . وجال بوجله في مكر مكره . وكر في وكره وعشا عشه . وثبت على لجاجه . ونبت في اجاجه . وتعسر وتسعر . وتربص وتصبر . والسلطان مصيب حكمه . صائب سهمه . ماض عزمه . قاض حزمه بار حده . ساطع سنى ايناسه . قد اتسقت اسبابه . واتسعت رحابه . واجتمع اصحابه . فازدحم على بابه وحول قبابه كل مبارز بار . وكل ضارب ضار . وكل حجار جار . وكل رامح ورام . وكل حامل سلاح وحام . وكل سائف حائف . وكل عاصف قاصف وكل آكل للحرب شارب . وكل طالع بالضرب غارب . وكل هاجم هائج . وكل راجم رائج . وكل معتقل متقلد . وكل مجرب مجرد وكل ذكر مذكور . وكل غضنفر مشكور . وكل ليث ملاث . وكل غيث غياث . وكل سفاك لدم الكفر سفاح . وكل جراد لسيف الفتك جراح وكل مكتتم في درعه . مكتمن في نقعه . ملتم بزغفه . مثلم بحرفه . مقنع بلامه . ملفع بقتامه . سابح في بحر الموت بسابحة . سامع في الصباح صوت صائحه . فجمع اليه أمراءه . واستحضر عظماء ملكه وكبراءه . وقالوا هذا بلد حصين . ومكانه من الارض مكين . في البحر ثلاثة ارباعه . وفي السماء ارتفاع بقاعه . وطريقه الذي يسلك من البر اليه . قد احاط به البحر من جانبيه . وقد قطعو بخندق في عرضه . وعمقوا ونزلوا في أرضه . وكان من احكام الحزم . واتمام العزم . تكميل الآلات وتتميمها ، وتحصيل المنجنيقات وتقديمها . وتركيب الأبراج والدبابات وتأليفها . وتقريب الجفاتي وتصفيفها ، وتسوية مناصب المجانيق وتسقيفها ، وتنحية أثقال العسكر وتخفيفها ، وتنخية نخب الرجال

وتصريفها ، وتسنية الأسباب ، وتهيئة الأخشاب ، واستحضار كل مايراد للحصار ، واستنفار كل من يرام من الأنصار ، فاذا حضرت هذه الأشياء والأشياع ، وتيسرت وتوفرت الأصول والأتباع ، رحب الذرع في الحصر والمضايقة وطال الباع ، واذا حالت الاحوال وضاعت الأوضاع ، واختل واعتل النزال والنزاع ، وأمر السلطان بازاحة العلل ، وازاله الخلل ، وشغل الصناع بالعمل . ونقل الأمل الى طريق الأجل . وتقدم بقطع أشجار الغياض . وحمل مابتلك النواحي من الانقاض ، فاجتمع هناك كل آلة وآلة ، وذباب وذبالة ، وقضيب ومقضب ، ومجرب ومحرب ، وسم وشهم وشهب ودهم وأحمال ، وأثقال ، ونظمت الستائر من القضيب ، وصفت من سور صور بالمكان القريب ، وكمنت من ورائها الكماة ، واستترت بالجفاتي قدامها الرماة ، واشتغل كل صانع بصنعه ، وكل جامع بجمعه ، وكل دافع مانع بمنعه ودفعه ، فمن جان بمنجنيق ، ودان الى نيق ، وداب بدبابة ، وذاب بذبابة ، ونازع في حنيه ، وناز بمنيه ، وقاذف بشراره ، وحاذف بحجاره ، وهاتك من ستاره ، وفاتك بجساره ، وجاذب في حبال ، وجالب لوبال ، ومرو في قلع ومسو لقلاع ، ومدبر بايجاف ومدمر بايجاع . ولم تزل المنجنيقات ترمي ، والحجارات تدمر وتدمي ، والدبابات تطير من أوكارها عقبان الجروخ ، واطباق البرج تبني وتغطي بالسلوخ ، حتى امتد الزمان ، واشتد الحران ، وضاق الحصر واعتاق النصر ، وكان العسكر قد الف تيسر الفتح ، وتسرع النجح . فصعب عليه حين صعب ، وتبع هواه لما تعب ، ولم يألف الناس الا ارواء ظمأهم بنهله والحصول على اكساب سهله ، وفتح مايقصدونه من البلاد بغير مهله ، فلما توقف هذا الفتح توقفوا ، وملوا وضجروا وتأففوا والسلطان مع ذلك يزداد في حده وجده ، وفي شده شدة ، وفي جده جدة ، يثبتهم بحثه ويحثهم على الثبات ، ويقويهم بجوده ويوجدهم القوات ، ويقول ان الله أمر بالمصابرة . ولامصابرة الا بالمثابرة . فاصبروا تفلحوا وصابروا تفتحوا .

ذكر ماتم على الاسطول

وكا ن السلطان قد نفذ من صور ، واحضر اليها من عكا مـاكان بها من مراكب الاسطول المنصور ، فوصلت منها عشر شوان ، على العدى جوان وللردى لهم جوان ، فعمرها بالرجال ، وجهزها للقتال واتصلت بها مـراكب لنا مـن بيروت وجبيل ، فـاستشعر المركيس واشياعه منها الويل ، وعمروا لهـم مـراكب ، ورفعـوا بهـا مناكب ، وسفننا بـالساحل عندنا مـربوطة ، وبحفـظنا مضـبوطة محوطة ، ودامت تدب عقاربها ، وتذب سواريها ، وتجري سواريها وتسري جـواريها ، وتـطير للقنص بـزاتها ، وتغير للفـرس غزاتها ، وتكسر بكواسرها ، وتدور بدوائرها ، وتـلاطم الأمـواج بأمواجها ، وتزاحم الأثبـاج بـأثباجها ، وتـرفع شرع الهـداة بشراعها ، وتقلع عرش الغواه بـاقلاعها ، وتنقض على شـياطين الكفر شهبها ، وترفض بشآبيب الذعر سحبها ، فـكأنها الاسـاود والسود ، وركبتهـا الاسـود ، مـن كل افعـوان يحمله افعوان ، وشجاع امتـطته شـجعان ، وغراب بشـتات العـدى ناعق ، وسحاب بوميض الهدى بارق ، فيالهـا مـن اغربـة دارت بعقبان . وأجنحـة طـارت بـظلمان .وروا س سـوار ، وغواز بغوار ، وقد ملئت بـرماة الحـدق وحمـاة الحلق ، وزراقـي النار وطراقي الثار ، والخاطفين بـالخطاطيف . والقـاذفين بـالمقانيف والكالمين بالكلاليب . والسالبين بالأساليب والحـاربين بـالمحاريب والراجمين بالرجام ، والمعلمين على الأعلام فانشقت مرائر الفرنج وازاحت سفنها عن النهج وقرنصت بزاة البيزانية . وتقلصـت جناة الجنوية ، وكرثت ادواء الداوية.وكثرت اسواء الاسـبتارية . وزادت آلام الألمانية.وعادت أسقام الافرنسيسية . وصارت مراكبهم في المينا لاتبين ، وشدتهم بشد شوانينا تكاد تلين . وقد ربطوا عندهم السفن فلو خـرجت كانت جبـالا تسـفن . وأذس اصـحابنا بعلو الأمر ، وخلوا البحر.وأمنوا من الخوف ، وأدمنوا على الطوف.ودام

تطوافهم.واستقام ايجافهم . واغتروا بالسلامة.وسروا بالاستقامة. وباتت لنا شوان خمس . لها بزوال الوحشة انس.وربطت بقرب مينا صور راصدة ، ولأخذ مايخرج من شوانيها قاصدة ، والدياجي مدلهمة والدواهي ملتمة.وعيون الزهر راقدة.وعيون الكفر ساهدة ، وللمكايد مصايد.وللعوادي عوائد.وللغوائل طوائل. وللمسائل دلائل ، وللمقادير مقادر.ولاولئك المراد مراد ، فحفظ اصحابنا الى السحر الحرس ، وسهروا الى أن شارفوا الغلس وكل منهم لما استأنس نعس.وغاص في النوم وماتنفس.فما انتبهوا الا وسفن الفرنج بهم محدقة ونيرانهم محرقة . فولجوا في البحر والتجوا . وتطافروا (٤)الى الماء لينجوا وعدت العداة وأخذت تلك الشواني الشناة واسروا منها عدة.ولقي الباقون شدة.فاغتم السلطان بسبب هذه النكبة.وفرح الكفار بتلك الضربة.وكانت تلك اولى حادثة كرثت.وكارثة حدثت.ونائبة رابت.ورائبة نابت.فضاقت القلوب.وضافت الكروب.وحصلت تجربة الغارين . واتصلت حركة القارين . واستيقظ الناعس.واستوحش الآنس . وهب الراقد.ودب الراكد ، وذاب الجامد . وشب الخامد.وهاج الزائر.وماج الزاخر. وتحرك الساكن.وتورك الراكن.وعقل من غفل.وذهن من ذهل.وتيقظ من غفا ، وتحفظ من هفا.وتقبض من انبسط.وتقيد من نشط.وهم من عف.وألم من كف.ورجفت الآفاق بالمرجفين.وطالت ألسنة المعذفين.فمنهم من يؤنب ويذنب.ومنهم من يقول ويطنب . والعاقل ينجنب . ويقيم العذر لمن يذنب.ويقول هذه من الله موعظة.وآية لنا موقظة.

واشار الناس بانفاذ الشواني البواقي، وقطعوا بان هذه القطع لاتكفي للاقاة في يلاقي ، فجهزوها نهارا وصيروا سرها جهارا .وامروا بتسييرها الى بيروت . ورجوا ان تسبق وتفوت . وركب العسكر في الساحل يباريها . وهي بالقرب تجارية في البحر وهو في البر يجاريها . فابصر ملاحوها شواني الفرنج لبارزتها مبرزة . وللاجهاز وراءها مجهزة .وكانوا رجالا من بحرية مصر مجمعه .

واصبحت قلوبهم بما جرى على انظارهم مروعه . فتواقعوا الى الماء . وخافوا على دمائهم في الدأماء (٥) . وخرجوا الى البر على وجوههم . وخافوا مكرهم في مكروههم . وفروا وفاروا . وطاروا وثاروا . ولم يلفت احد منهم لبتا . ولم يزدهم دعاؤهم الى التجمع الا تشتيتا . فظهر بهذه النوبة الواقعة . والنبوة الرائعة . ان نواب مصر لم يجر منهم بالاسطول احتفال . ولم يرتب فيه على ما يراد رجال . وانما حشدوا اليها مجمعة مجهولة غير عارفة ولا معروفة . ومستضعفة غير آلفة ولا مألوفة . فلا جرم لما شاهدوا الروع ارتاعوا . ولما الزموا بالطاعة ما استطاعوا . وكان في جملة شوانينا قطعة يتولاها رئيس جبيل . وفيها بحرية من ذوي التجربة والتجري والتجرية ما لها حين ولا ميل . فطال بأسلحة الدفاع . وطار بأجنحة الشراع . وفاز بالسبق وفات . وهيهات ان يدرك هيهات . فنجا النجباء . وآب بهم الاباء . فبقيت المراكب الباقية . وقد اخلاها حماتها الواقيه . فرفعناها الى البر . ورأينا الصحة منها في الكسر . وفرغنا من شغل المراكب في البحر . وهذا والمنجنيقات ترميهم . والمفوقات الموفقات تعميهم وتصميهم . والقتال قائم . والنزال دائم . والصخور تفلق . والصدور تقلق . والاحجار تقلقل . والاسوار تحلحل . والاطوار تضعضع ، والابراج القيام تسجد وتركع . والاصلاد تقدح . والاجلاد تقرح . والالواح تصدع . والارواح بين أكفاء الكفاح مقسومة . والقروح بها قوارح القوارع موسومة . والحنايا واترة موترة . والمنايا مأثورة مؤثرة . وظعائن الضغائن تحدي بصليل البواتر . وصهيل الضوامر . وحقوق الحقود تقتضي بألسنة الاسنة . وعنت الاعنة من الغريم الكافر . والاوداج شاخبة كالعيون البواكي . والابشار دامية من الزنبوركات والناوكات الذواكي . وهناك العقل معزول بالتهور . والرأي مشغول عن التدبر . والعلم والحلم خالطهما الجهل والسفاه والجرخي يبتدىء ببسم الله . والمنجنيقي يختم بلا اله الا الله . والزراق بالنار يطيب القاروره . ويحرق الساتورة . والسباق الى المضمار يساور السور ويباشر الباشورة .

ذكر خروج الفرنج للقتال

ولما عثر الفرنج على تلك العثـرة . ظنوا فينا الفتـور لأجـل تلك الفترة . وقالوا مراكبهم انحـل تـركيبها . وكتـائبهم اختـل ترتيبها . وستجرى بها عنا الندامة التي يحدثها تجـريبها . وهـم الآن على صوت لهم مخيف . وفوت بهم مطيف . فلا معنى لتقاعدنا عنهم . ولا وجه لتباعدنا منهم . فلوخرجنا صـدمناهم . وأقـدمنا عليهم وهـزمناهم . وخـرجوا يومـا قبـل العصر . في عدة كالليل خارجة عن الحصر . قد التأموا واستلأموا وانضـموا والتـظموا وتقدموا . وأقدموا للطوارق حاملين . وللجمالات مـطرقين . وعلى الفرق مجتمعين . وللجماعات مفرقين . وبالرهق جـادين . وبـالجد مرهقين . وللعقود حالين . ومـن الغمـود سـالين . وللمناصـل منتصبين . وللطوائل مقتضين . وللسـيوف مجـردين . وللسـيول مجرين ، وبالزغف ملتئمين . وفي الحتف مقتحمين . وبالقنطاريات طائرين . وبالزيارات زائرين . مـن كل مغـوار وار . ومحضـار ضار . وفجـار جـار . وجبـار بـار . وعدو عنود . وكند كنود . وداوي ذي دوي . وبـاروني غوي . ومـن كل مصـمم اذا وتر . مصمم اذا اوتر . مصمم اذا نعـر . مصر اذا ذعر . هـائج اذا استعر . مـائج اذا نخـر . متنمـر اذا زأر . متـذمر اذا زجر . فتناوبوا وتواثبوا . وتجاولوا وتجاوبوا . وبذوا من متارس المنجنيقات . وجذوا من مغارس الجذويات . وبذوا امـرهم على ان الناس ناسون غارون . وان اهـل البـأس في خيمهـم هـاجعون قارون . فتلقاهم منا كل ضارب للهام . ضار بالحمام . وجـار الى الأقدام . ملب للصوت . محب للموت . مشـتهر بـاغناء . مشـته للقاء . مستهتر بالبلاء . ماض بـالمواضي . متقـاض بـالقواضب القـواضي . وكل ابيض بـالبيض ضراب والبيض رضـاض . واغلب المغلب قضقاض والى الحرب نهاض . وكل معتقل رماحه . معتقـد مرحه . معتقد مزاحه . مهتز لطـرب الشـهادة . معتـز بـأرب

السعادة . متمن للمنون . متجن على الحنون . مضرم نار الحديد في ماء الوريد . مغرم في تفريق العدى بجمع العديد . مفرغ ماء الظبـاء على نار النجيع . مبلغ تلبية الهدى الى الصريخ السريع . قد تلثـم باللام . وتلفع باللثام . وتقنع بالزرد . وتدرع بالجلد . وتجـوشن بالصبر . وتخشن بالزبر . وصال بالقضب . وجال بالهضب . وطال بالهندي على الفرنجي . وخاض من دم الشرك في البحر اللجي . فلم يسمع الا انين الحنية . لحنين المنية . ورنين الأوتـار . مـن كنين الأوتـار . وهفيف السـهام . لذفيف اللهـام . وصـليل بنات الغمود . من غليل ابناء الحقـود . وهمهمـة الابـطال وغمغمـة الأقيال . وزئير الضرغام . وزفير الضرام . وقـرع الظبـا بالظبا . ووقع الشبا على الشـبا . وضـجة الحـديد مـن الحديد . وعجة الشديد . وجعجعة رحـى الحـرب . وقعقعـة اداة الطعن . والضرب . وجرجرة الفحول . وزمجرة النحول . وهـديل حمـام الحمـام . وهـدير قـروم الايدام . ووعوعة ذئاب الوغى . ومعمعة التهاب اللظى . ودعدعة صاع المصـاع . وجلجلة سباع القراع . وصـلصلة الزبـر . وولولة الزمـر . وحيعلة دعاة النصر . وهيضـلة رعاة الكفـر . ورفـرفة المريشـات الراشقة . وهسـهسة الطعنات الفـاهقة . وهـزهزة اعطـاف المران . وزهزهة اصوات الشجعان . ونعير الغـالبين . وصـخب السالبين . ولجـب الجـالبين . وزحير الطـالبين . ونهيت (٦) الأسـود . وقصـيف الرعود . وهـدة الأركان . ودهـدهة الرعان . وقهقهة الأقران . وقرقرة كوم البـكاء . وصرصرة بـزاة الغزاة . وكشيش صـلاص الضـلال . ونشـيش مـراجل الرجـال . وهـزيز ريح الياس . وهـزيم رعد المراس . وارنان المعـاجس . وارزام القناعس . وهيعـة الصـارخ . وصـيحة النافخ . وزعقة المسـتفزع . ونعقـة المسـتنزع . وشـعشعة الخرصان . وزهزمة النيزان . وهينمة الاجل . وجمجمـة الزجـل وتـكبير المؤمنين . وتهليل المؤمنين . وصرير ابـواب الجنان للشـهداء . وصريف انياب الجنان للاعداء . والدعاء الى اللقاء . والنداء الى الارداء . وارتفعـت الاصـوات . واشـتبهت

الاحياء والاموات . ووقع اصحابنا فيهم وقوع النار في الحطب . واروهم في مرايا البيض وجوه العطب. وولوا مدبرين . بعد ماتولوا مدبرين وجذوبنا تشلهم . وجدودنا تفلهم . ولتوتنا ترضهم . وليوثنا تفضهم . وعادوا الى البلد . عادمي الجلد . وفيهم ندوب وعليهم نوادب . وايدي الردى بهم لواعب ومنهم لواغب . ودخل الليل . وعمهم الويل . واسرنا منهم مقدمين . ثبتوا على الدوت مقدمين ، وممن اسر فخسر قومص عظيم . بل شيطان رجيم ، فترك في قيد اسار ، ليكشف عن حاله بالنهار . وكان الملك الظاهر غازي . لم يحضر فيما تقدم من المغازي . فرأى ان يحقق اسمه بقتله . فضرب عنقه بحد نصله . وكان للمركيس شبيها وفي الفرنج وجيها . فظنوا انه هو للشبه . وبات اهل الكفر بالعمى والعمه . ثم عرف ان المركيس في نفسه لم ينكأ ولم يذكب . ولما عطب اشياعه لم يعطب . وندم على ماقدم . ومن تقدم على غرة تندم .

ذكر مادبروه من الرأي ورأوه من التدبير

ولما امتنع البلد . وارتدع الجلد . وارتج العدو ولج . ضجر العسكر وضج . واجتمع امراء . يحبون الافلات . ولا يكرهون الفوات . وقالوا مطاولة ما نقصر عنه تتعب . ومزاولة مالايزول تصعب . ومحاولة الممتنع محال . ومطال غريم هذا الفتح مطال . وما يتسع لنا في هذه الحلبة الضيقة مجال . وهذا السلطان جلد على المصابرة . مجد في المكابرة . لايكترث بالكارث . ولا يدخل سمعه حديث الحادث . ولا يبالي بمن بلى ، ولا يفكر فيمن ولي أو ولى ، ولا راحة له الا في التعب ، ولا يعلم له نصيب سلامة الا من النصب ، وكل ما جرى الى اليوم منا ومن القوم لم يرعه ولم يردعه ، وقد قيل اذا لم تستطع شيئا ، فدعه ، فكيف السبيل الى

استعطافه ، وما التدبير في استدعافه . وبم نتوسل ونتوصل . واذا عرفناه ان الداء يعضل . والخطب يشكل لعله يحتوي الاقامة ويرحل . فاطلع على ما اسروه ، ومر به ما امروه ، وهمه ما به هموا . وآله ما به آلوا . فراسلهم بالهيبات وواصلهم بالصلات ورغبهم فيما عند الله من الزلفى ووعدهم بكل ما على أملهم اوفى . وقال لهم كيف نخلي هذا المكان . وما استفرغنا في شغله الامكان . وما استنفدنا في مضايقته الوسع ، ولا احسنا بعد في محاصرته الصنع ، ولا زحف اليه الجمع . ولا حفز منه المنع ، ولا اصابنا من مكر اهله مكروه ، ولا ورد الصبر منه بشفاه شفاهه مشفوه ، وكيف تجري بنا الخيل عنه قبل التجريب ، وهذا الارب ما يخطر بخاطر الاريب ، وما عذرنا الى الله والى المسلمين اذا تركناه ، وكيف نقول فاتنا هذا القنص وما ادركناه . والفرصة اذا فاتت لا تدرك ، والبغية اذا واتت فحقها تملك ، وذواظر الناس الى ما سيكون منا في صور صور ، وهذه الظلمة المدلهمة لا يجلوها الا نور . ومن لا يتعب لا يسترح ، ومن لا يحترق من الوجد لا يقترح . وان تجدوا تجدوا . وان تردوا عن المنهل العدى تردوا . وان تصبروا تصيبوا . فارجعوا الى الله وانيبوا . وهذا الراجل متواصل . والغرض به حاصل . ونحن نقسمه على المجانيق ونوبها . ونلزم كلا منهم ملازمة البقعة التي هو بها . وهذا البرج قد ارتفع . والوسع قد اتسع . وقد امتلأت بالرجال طبقاته . وتوالت منها في الكفر شقاته . والنصر قد آن أن تطيب نشقاته . والمركيس ابعده الله قد قرب ان تخونه ثقاته . ورأينا طول الارواح . لا التطاول الى الرواح . وفي التثبيت على المقام . التوثب على المرام . ثم اخرج المال وصبه من اكياسه . وفرقه على ناسه . واذفقه في اهل باسه . وواصل البذل وهجر العذل . وملأ الايدي بالغنى . وروح للرجاء نجح المنى . وامر فامتثل وقال فقبل . ونادى فسمع . وحشر فجمع . وعادت عادة الحصار . واسعدت سعادة الانصار .

ذكر فتح حصن هونين

وورد الخبر عن هونين انها هانت . ودنا امرها ودانت . وان طريق فتحها بانت . وانها عنت فان الطاف الله اعانت . وانها بذلت ماصانت . ولم تبق للكفر على ماكانت وان شدتها لانت . وكان السلطان قد وكل بها بعض امرائه . وامده بمددي جنده وعطائه . فلبث الى هذه الغاية . يصبها بسهام الذكاية حتى طلب اهلها الامان على الوفاء بما يشترطون . ويشطون منها ولايشتطون ، فاول ماقالوا امهلونا حتى نعلم مايكون من صور . ونكتشف هذه الامور ، فان اخذتموها اخذتم هذه . وشفعنا امر السلطان بذفانه . وان خليتموها فياهوان هونين . ونحن نجعل على هذا عدة من الاصحاب مرهونين ، فندب السلطان بدر الدين دلدردم الياروقي وهو من اكابر عظمائه ، واكارم امرائه ، وامره باستنزالهم واستزلالهم ، والامان لنسائهم ورجالهم ، فمضى ورغبهم في الامن والسلامة ، وخوفهم عقبي الحسرة والندامة ، وقال لهم انتم بين حصنين هما تبنين وبانياس ، وماذا تصنعون اذا خاب رجاؤكم وبان الياس ، واذا ابيتم التسليم عدمتم سلامتكم ، واقمتم قيامتكم . واستباحكم السلطان واستباكم . وكرهكم واباكم . وحل بالقتل حباكم . وفل شباكم . فما زال يرغب ويرهب حتى رغبوا ورهبوا . واخذوا الامان على ان يذهبوا . ووصل الخبر الى السلطان وهو على محاصرة صور مقيم . ولمقاتلة اهلها مستديم . والى ماعند الله من نصره مستنيم . وتسلمت هونين بما فيها من عدة ونخيرة . وقوة وميرة . والات وادوات كثيرة . وتسلمها بيرم اخو صاحب بانياس . واستشعر الفرنج منها الياس . وكانت قد بقيت من الحصون التي تعذر فتحها . وبرح بالقلوب برحها من عمل صيدا: قلعة ابي الحسن وشقيف أرنون . ومن عمل طبرية والغور: صفد وكوكب وهما من احكم الحصون وقد وكل بهما اميرين ° من خواصه كبيرين . وقد ضيقا على من بهما من العلوج . ومنعا من

الدخول والخروج . واقام السلطان على صور محاصرا . والدين الحنيف ناصرا . وليد الشرك بمطاولته قاصرا . يقاتلها بكل سلاح . ويقابلها بكل كفاح . حتى كادت تستكين . وشدتها تلين وابيتها تدين وسريرها يبين . وكان قد دخل كانون . وظهر من سر الشتاء المكنون . ووقبض البرد الايدي عن الانبساط . واعدم الهمم دواعي النشاط . وعادت العزائم المتوهجة تبرد . والصرائم المتأججة تخمد . والنخوات المتحركة تجمد . والحميات المتيقظة ترقد . والضرام المحتدم يخبو . والحسام المخذم يذبو . والطباع تتكره . والسباع تتأوه . ومناوبة القتال تختل . ومعاقدة النزال تنحل . فلحاهم السلطان على مالاح .وعرفهم ان في الصبر الفلاح . وامرهم بالمقام والاستقامة على الامر . وانه لاظفر الا مع الصبر . وان الظلم تنجلي عند تجلي الفجر . وكان في الأمراء جماعة منتجون منتخون . أبت أمانتهم في حمية الدين أن تخون مقيمون على الكريهة ولاكراهة منهم للمقام . ويحبون ان تقام وظيفة الانتقام ويؤثرون باذفسهم في طاعة الله وموافقة السلطان . وعصيان الشيطان في مفارقة المكان . فاذا ارجف بالرحيل رجفوا . وسخفوا راي المشير به وضعفوا . واضطربوا واضطرموا وتذمموا وتلوموا . وقالوا كيف نترك ماحويناه . ونعوج ماسويناه . ونذشر كفرا طويناه ونهجر خيرا ذويناه . وندأوي توحيدا شفيناه . ونشفي اشراكا ادويناه . ومالراحة اليوم طالب . الا وهو غدا بالتعب مطلوب . ومن امسى وهو الآن غالب . يوشك اذا ولى ان يصبح وهو مغلوب . وهذه صورة صور قد تشوهت . وموارد قوتها شفهت . واذا تخلينا عنها وخليناها ترفهت واستفرهت . واذا حلمنا عنها سفهت . وهبت من غشية خشيتها وتنبهت . وتارك المصابرة مصاب . والاخذ بالمثابرة مثاب . فمنهم الامير طمان بن غازي ماطمأن يوما في الغزو ولاسكن . وعز الدين جرديك الذوري كم جرد على اعناق المشركين سيفه الذي به تمكن . وهما همامان مقدمان مقدامان . من عادتهما الوثبات على ثبات العداة يرومان الثبات ولايريمان . وجماعة اخر بهما يتشبهون . وبالكريهة لايتكرهون . واما الباقون فانهم احبوا البقاء . وابغضوا اللقاء . واتقوا الاتقاء . وابو الا الاباء . وقالوا قد

لغبنا . ومابلغنا . وجرحنا ، ومارجحنا . فلورحنا استرحنا . ثم عجنا ورجعنا . ومانحن باول واضع للاصر . راجع عن الحصر . معتف للعقل . مستعف من الثقل عامل بمحض الحزم . عالم بوقت العزم . هذا وقد علم ماعرا من ضروب الكروب . وثلم مابرى من غروب الحروب . وبقدر ماهدم من مباني البلد هدم اكثر منه مباني الجلد . فقال السلطان بل نجد في القتال اياما . ونقدم بأسا واقداما . ونزحف بجميع رجالنا . ونصدقهم في نزالنا . ونقاتلهم من جميع النواحي . فان تعذر لاح العذر للاحي . واصبح العسكر وقد استعد . وامتد قبالة البلد من البحر الى البحر والنصر استمد . وركب الامراء باجنادهم ووقفوا . واثمر لهم ورق الحديد الاخضر فقطفوا . وتناوبوا في الزحف . وتعاقبوا على الحتف . وكلما ترجلت طائفة قاتلت ثم رجعت . وجاءت الطائفة الاخرى فصدقت وقرعت . وصارعت وصرعت . فلم ير اشد من ذلك اليوم . في وقم القوم . واجترأ اصحابنا . وراض جماحهم اصحابنا . وخاضت خيلنا في البحر خلف منهزميهم . واقدم من احجم منا لاحجام مقدميهم . فحينئذ طارت للحين من السهام زنابيرها . واسعرت الحرب بضرام الضراب مساعيرها . وامتلأت السعير بقتلاهم وقالت هل من مزيد . وفتحت الجنة لمن باع نفسه بها فقالت هل من شهيد . وانقضى ذلك اليوم وقد كلت الاسلحة . وملت الاجنحة . وانهاضت قوادم الانهاض . واندفضت الجموع من اقواء القوى والانقاض . وبات الناس على ضجر وضجاج . ولجب ولجاج . فلو عاودنا البلد بمثل ذلك اليوم اياما . لذلنا من فتحة مراما لكنهم اصبحوا على سأم.

والموا بابداء الم . وقالوا: قلت كثرتنا . فلو اقيلت عثرتنا لانجبرت كسرتنا . وفينا الجريح والطليح . وحتى متى لاذستريح . وقد توالت الامطار فلامطار . وعلينا هذا الحصار صار . وكانت الجراحات كثيرة . والاحتياجات بها مثيرة . ومنع البرد من العمل . وامتنع سد الخلة وتسديد الخلل . ومازالوا يراسلون السلطان ويشيرون بالرحيل . ويقولون لاتتعب على تحصيل المستحيل . ولاتذهب الايام في ابرام المستحيل . ودعنا نستجد دعه . ونسترد قوى عند لطف الله مودعه . ونشتغل بفتح الايسر وهو اكثر . ونؤخر التشاغل بما لعله

يتعسر . وكان السلطان في تلك المدة . انفق اموالا كثيرة على تلك الالة والعدة . ومامكن نقلها . ولامكن من نقلها ثقلها . ولو ابقاها لقوي بها الكفر . واشتغل بسببها الفكر . فرأى نقضها . وفك بعضها . واحرق منها ماتعذر حملها . وشتت بعد التجمع شملها . وحمل بعضها الى صيدا وبعضها الى عكا . وجرت اعاجيب ماتكاد تحكى . وسر ذلك الرحيل قوما وساء قوما فأضحك وابكى . وتأخر السلطان وتباعد عن قرب صور الى المنزلة الاولى ويد ايده على جميع الاحوال طولي . فشرع العسكر في الانصراف . وتزود للانفكاء والانكفاف . واخذ الجمع في الافتراق . وانتشر في الافاق . وذهب من ذهب على مواعدة في المعاوده . ومسارعة في الرجوع الى المساعدة . وودع الملك المظفر تقي الدين من هناك . واوعد بوعد عوده الاشراك . وسار على طريق هونين الى دمشق مغذا . وسارت معه عساكر الموصل وسنجار وديار بكر ، وكل طير منهم اشتاق الى وكره . وماعرفوا ان هذه الراحة القليلة تعقبهم تعبا كثيرا . وان هذا الهدو الذي مالوا اليه يصير لحثيث حركتهم مثيرا . وبقي السلطان يتلهف على ماتركه . ويتأسف على الفتح الذي مادركه . والذين اشاروا بهذا الرأي يسهلون الصعب . ويهونون الخطب . ويقولون نمضي ونعود . وتساعدنا السعود . وتنجدنا الجنود . وتتجدد الجدود . ويورق العود . وتصدق الوعود . واذا اقبل الربيع . اقبل الجميع . وطلب الزمان . ووفى الضمان . وامكن الاسعاد وساعد الامكان . ومازالوا بنا حتى رحلنا . وعلى الرأي الرائب منهم احلنا . ولو اقمنا لقمنا . وقمعنا العدو ووقمنا . لكن الله قدر وقدره محتوم . وسر غيبه المكتوب في اللوح المحفوظ مكتوم . واراد ولامرد لراده . وقضى ولامحيد لما قضاه في عباده . وان تبقى صور في تلك الحالة للكفر وكرا . وللمكر مكرا وللشرك شركا . ولنار جهنم دركا . وقدمنا عن صور الارتحال . آخر شوال . غرة كانون الثاني وعم البرد في القاصي والداني . وتوحمت السماء من حوامل السحائب . وتوحلت الارض من سوائل المذانب . والذكب الرياح عواصف عواسف . قواصم قواصف . والسحب الدلاح (٧) هوامل هوامر رواعد رواعف . والبرد قارس . والماء جامد جامس .

والشتاء شتات بتات . وما مع مقامه وثباته مقام وثبات . وسرنا عباييد في لبابيد . وبين جليد وجلاميد . على الناقورة وطريقها . والاثقال قد ازدحمت في مضيقها . والاحمال تتواقع . والاجمال تتقاطع . والسبل تنسد . والسابلة ترتد . وسلكت الخيل الجبل . وقطع العسكر طريقه الى المخيم ووصل . وتأخر الثقل . الى ان تخلص . وتقدم من سبق وتملص . ووصلنا الى عكا في ثلاث مراحل . وقد غطى بحر عسكرنا الساحل . وخيم السلطان على باب البلد بجانب التل . نامي الفضل . دائم الفكر في تدبير الأمر وتدمير الكفر . واثقا من الله بانجاز النصر

ذكر الحادثة التي تمت على محمود أخي جاولي حتى استشهد هو وأصحابه

ويوم رحيلنا من صور نعي محمود أخو جاولي . وكان من جملة الامراء اعف ولي ولي . وعاش مجاهدا زاهدا وعيشه زهيد . وقضي صابرا مصابرا وهو سعيد شهيد . وسبب ذلك ان السلطان لعلمه بديانته وأمانته . وبأسه وبسالته . ويقظته ونهضته وحزامته . وكله بحصن كوكب الذي على الغور . وكانت فيها جمرة الاسبتارية القريبة الجور البعيدة الغور . وقد تمنعوا بشدتهم . واشتدوا بمنعتهم . وهو حصن لايرام . وركن لايضام . ومعقل لايسامى ولايسام . وذروة لاتفرع . ومروة لاتقرع . وعقيلة لاتفترع . وبكر لاتخطب . وقلعة لاتطلب . ولما ملك الساحل . وهلك الباطل . ونظمت الحصون في سلك الحصول . وظفر الاسلام بالفتح المأمون والمأمول . وافتتحت طبرية وأعمالها . وتملكت أغوار تلك البلاد وجبالها . تمنعت قلعتا صفد بالداوية . وكوكب بالاسبتارية . وتعذر فتحهما . وتعسر منحهما . وقف أمرهما . وأعدى البلاد ضرهما . فرتب على صفد جماعة يعرفون بالناصرية . من أهل الابية والنخوة والحمية . ومقدمهم مسعود الصلتي أصلتت سعادته منه سيفا

إصليتا . لايلفت عن لقاء العدو ليتا . ورتب على كوكب هذا محمودا . وكان بهما أمر الحفظ محمودا . وذلك بعد الكسرة . وصحة النصرة . فأحاطا بالحصنين واحتاطا . وظهرت كفاية كليهما بما تعاطى . وكان الحفظ مستمرا . والاحتياط مستقرا . حتى أنس محمود بضعف أهل الحصن . وظن أنهم في غاية الوهن . وسكن إلى سكونهم . وأغمضت عينه لتوهم إغماض عيونهم . واسترسل فيما حزب . واستسهل ما صعب . وأخل بالحزم . وخلا من العزم . واحتقر عدوه . وحسب من العجز هدوه . وكان مقامه بحصن قريب من كوكب يقال له عفر بلا . وقد أقام به جاما جامعا فيه ما أمر وحلا . وكان ذا دين متين . ومكان من الذسك مكين . وهو يسهر أكثر ليله متهجدا . وقد جعل منزله مسجدا . وأصحابه من حوله . يحفظونه بقوة الله وحوله . فلما كان آخر ليلة من شوال . وهي ليلة ذات أهوال . مظلمة مدلهمة كافرة مكفهرة . ليلاء قتماء . باردة مقشعرة . أنوارها بائدة . وأنواؤها جائدة . وهزيع جنحها دجوجي . وهزيم ودقها لحي . وسحبها سحم . وأقطارها دهم . وصبيرها صيب . وصنبرها مشيب . لايفرق فيها السماء من الارض . ظلمات بعضها فوق بعض . خرج أهل كوكب وقت السحر . والناس رقود والحراس هجود . والجنود جمود . والانفاس خمود . والهمم ركود . والسيوف اسرار . أضمرتها الغمود . والعدم قد دنا منه الوجود . فما أحس محمود المحمود . وأصحابه الهمود الا بالفرنج وقد سلكوا اليهم . وبركوا عليهم . فقصروا عن الامتناع . ولم يقدروا على الدفاع . فجاءتهم السعادة . وفجأتهم الشهادة . وبقي الامير حتى استشهد محصورا . وكان أمر الله قدرا مقدورا . ونقلوا الى القلعة ماوجدوه من سلاح ومتاع . وخيل وكراع فلما عرف السلطان ماأصابهم . احتسب عند الله مصابهم . وأحمد الى الجنة مآبهم . فندب الى كوكب صارم الدين قايماز النجمي الصارم المخدم . والحازم المقدم والعضب البتار . والندب المغوار . والأسد الأسد . والأحمى الأحمد . في خمسمائة فارس من ذوي النجدة . والبأس والشدة . فسد الطريق بمضايقتها عنها . ومنع من الدخول اليها والخروج منها . ولم يزل

عليها مقيما . ولحصرها مستديما . إلى أن يسر الله فتحها . وسهل للآمال فيها نجحها . وسنذكر ذلك في موضعه . وكيف أشرق صبح النصر من مطلعه .

ذكر ما جرى بعد نزول السلطان على عكا بعد عوده من صور

استأنن الملك الظاهر والده في العود إلى حلب فأذن له وودعه . بعدما أمره بكل ما يجب تقديمه من الاستعداد فامتثله واتبعه . وودع الملك العادل وأوجه إلى مصر . مستقبل الظفر والنصر . وأقام الملك الافضل بعكا مستقلا بالآراء . ومستهلا بالآلاء . مستبدا بتدبير أسباب الهدى . مستعدا لتدمير أحزاب العدى . وأقمنا بالمخيم لخدمة السلطان ملازمين . ولاقامة شرائطها مدا ومين . وكل يطلب اننا في الانصراف . ويستقيم على نهج الانحراف . حتى خف من عندنا من الجند . وثقل علينا عبء البرد وتناوحت الهوج . وتراوحت الثلوج . ورجت الدروج . ونجت الذؤوج . وارتجز عجاج الودق .(٨)وارتجس نجاح البرق . وجفت الحرجف . وطفح الاوطف . وتقطعت الخيام وتقلعت الاوتاد . وتجللت بابراد الجليد من البرد الآكام والوهاد . ومال بل وقع عمود السرادق . ودام تواصل البوارح والبوارق . ودخل السلطان الى المدينة . وسكن بها في كنف السكينة . مستقيما على المحجة المستبينة . مقيما للحجة المتينة . وشرع في إعداد العدد . واستمداد المدد . وابرام معاقد الحل والعقد . واحكام قواعد الدين والمجد . واحياء سنة السماح والفضل . واعلاء سناء الاحسان والعدل . وافادة الكرام واكرام الوفود . واعادة ما بدأ به من افاضة الجود . واجازة الراجين . واجارة اللاجين . واسعاف العافين . وابعاد العادين . وادناء أهل العلم . واغناء ذوي العدم . وانجاح المقاصد . وانجاز المواعد .

ذكر رسل وردوا في هذا التاريخ

وكانت رسل آفاق من:الروم.وخراسان.والعراق . عاكفين على بابه . قاطفين جني جنابه . واقفين لرفع حجابه . مستسعفين لنعمائه . مستعطفين لابائه . متعرضين لثوابه . متضرعين في خطابه . وكلهم يهنئه بما أفرده الله بفضيلته . وخصه بنجح وسيلته .

وأقدره عليه وقد عجز عنه الملوك . وهداه الى سبيله وقد تعذر بهم اليه السلوك . وهو فتح القدس الذي درج على حسرته القرون الاولى . وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولي . فما منهم إلا من يعترف بيمنه ويغترف من يمه . ويقر بحكم النزيل له وينزل على حكمه . ويخطب الصداقة في الصدق . ويحقق المظاهرة لاظهار الحق . ويتقرب بالوفاء والوفاق . ويتباعد عن الشقاء والشقاق . ومن جملتهم رسول صاحب الري قتلغ اينانج بن بهلوان . ورسول قزل ارسلان المستولي على ممالك:همذان. واذربيجان.واران . وهو عز الدين الطالبي الطالب للعز . الراغب في الفوز . فما من يوم يمضي . وشهر ينقضي . الا ويصل منهم رسول . ويتصل به سول . وتتجلى غمة . وتتجلى نعمة . وتتجه بشرى وتستبشر وجوه . ويكف مكر ويكفي مكروه . ونظر في احوال عكا فرتبها . وفي أمورها فهذبها . وفي مضارها فأذهبها . وفي منافعها فقربها . وولى عز الدين جرديك بها واليا . وأعاد عطلها بفضل ولده الملك الافضل حاليا . حاليا . ووقف بها وقوفا . واجنى المستحقين منها قطوفا . وأسدى معروفا . وأعطى ألوفا . وأرغم من الاعداء أنوفا . وكانت فتوحه لهم حتوفا . ووقف نصف دار الاسبتار رباطا للمتصوفه . وللوافدين من أهل الطريقة والمعرفة . ونصفها مدرسة للمتفقهه . وللطلبة المتعففة المتنزهة . فجمع بين العلم والعمل . والنجح والأمل . وكتب الرزق لهم إلى كتاب الأجل . واتخذ لطلب مرضاة الله دار الاسقف بيمارستان المرضي . وأتى بكل مايحبه الله

وبه يرضي . فلم يبق سنة الا خلدها . ولامنة الا قلدها . ولا أجرا الا أجراه . ولاهدى الا أهداه . ولا أمرا الا أمره . ولا دارا الا أدره . ولا فريضة الا أداها . ولافضيلة الا اتاها . ولافرصة صواب الا انتهزها ولاحصة ثواب الا احرزها . ولارمم فواضل الا انشرها ونشرها . ولا امم فضائل الا حشدها وحشرها . وماترك قارئا الا قراه . ولاراويا الا اشبعه وأرواه . ولاحافظ حديث الا حفظه من الحدثان ولامحسن صنعة الا اصطنعه بالاحسان . ولاناظم مدائح . الا نظم له المنائح . ولامرافيا بقريض إلا وفى قروضه . وأعجز عن القيام بحملي حمده نهوضه . وتقدم إلى الوالي بالتردد في الاعمال . وتفقد الأحوال . وسد الخلة وتسديد الاختلال وتعليل السقم وتسقيم المعتل . وتحليل العقد وتعقيد المنحل . فاستقرت بولايته الولاية . واستمرت لرعيته الرعاية . ودرت أفاريق الآفاق . ودارت أسواق الارزاق .

ذكر وصول أخي تاج الدين أبي بكر حامد من دار الخلافة بالرسالة في العتب على احداث ثقلت . وأحاديث نقلت . ووشايات أثرت وأرثت . وسعايات في السلطان عثت . في الاحوال . وشعثت . وذلك في شوال . ونحن على حصار صور ونزاع ونزال . ذكر السبب في ذلك .

لما تم الفتح الاكبر . وخص وعم النجح الاظهر . وقطع دابر المشركين . وحط اقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بحطين . أمرني السلطان باذشاء كتب البشائر الى الافاق . وتقديم البشرى به إلى العراق . فقلت هذا فتح كريم . ومنح من الله عظيم . وملك عقيم . وسمو وسيم . فلا يجب ان يكون مبشر دار الخلافة . بما انزله الله لنا من الرحمة والرأفة . الا من هو عندنا أجل وأجلى . وأعلم

وأعلى . وأجمع لفنون الفضائل . وأعرف بأداء الرسائل . فلا يوجه بهذه الكرامة الا الكريم الوجيه . ولاينبه لهذه المقامة الا القويم النبيه . ولايرفع العظيم الا بالعظيم الرفيع . فان الشريف يتضع شرفه بمقارنة الوضيع . فقال هذه نصرة مبتكرة بكرت . ومهبة ميسرة بدرت وندرت . فنحن نعجل بها بشيرا . ونؤخر للاجلال كما ذكرت سفيرا . وكان في الخدمة شاب بغدادي من الاجناد . قد هاجر للاسترفاد . وتوجه بعد وصوله . ونبه بعد خموله . فسأل في البشارة الى بغداد . وزعم انه يداوم اليها الاغذاذ . وشفع له جماعة من الاكابر حتى خص بأشرف البشائر . فقلت هذا لايحصل له وقع . ولايصل اليه دفع . والواجب ان يسير في هذا الخطير خطير . وفي هذه النصرة الكبرى كبير . فان الرسول من يندب للتفهيم والتفخيم . ويرتب في الامر العظيم للتعظيم . ثم سار المندوب . وشغلت عن ارسال سواه الفتوح والحروب . ولما فتح البيت المقدس أرسل ببشارته نجاب . ونفذ بها كتاب . ووصل البشير الجندي . فلم تجل به على كفؤ الجلالة من الهدى الهدي . وحقروه . وما وقروه . فانه كان عندهم بعين فنظروه بتلك العين وحبوه بما يليق به من الرقة والعين . ونقم على السلطان ارسال مثله . وانه لم يعصب المنصب في تلك الرسالة باهله . وتسمح المندوب بكلام اخذ عليه . وبدرت منه أحاديث نسبت اليه . وقال في سكره . وحالة ذكره . ما يعرض عن ذكره . فخيل ومحوه . وتذكر وتكره . وظن أن لكلامه أصلا . ولقطعه منا وصلا . وانهيت الى العرض الاشرف مقالاته . وعلمت جهالاته . وتجني على السلطان بارساله . وطرق الى هداه ماأذكروه من مقال المذكور وضلاله . ووجد الاعداء حينئذ الى السعاية طريقا . وطلبوا لشمل استسعاده بالخدمة تفريقا . واختلقوا اضاليل . ولفقوا اباطيل . وقالوا هذا يزعم انه يقلب الدولة . ويغلب الصولة . وانه ينعت بالملك الناصر نعت الامام الناصر . ويدل بما له من قوة والعساكر . فاشفق الديوان العزيز على السلطان من هذه . وبرز الامر المطاع بارسال اخي واذفانه . وقالوا هذا تاج الدين أخو العماد . يكفل لنا في كشف سر الامر بالمراد فان اخاه هناك . مطلع على الاسرار . وهو منتظم في سلك

الاولياء الابرار . وعول عليه الديوان العزيز في السفارة . ورد معه جواب البشارة . وكتبت له تذكرة بموجبات مقاصد العتب . ومكدرات موارد القرب . والمخاطبة فيها وان كانت حسنة خشنه . والمعاتبة مع شدتها للعواطف الامامية لينه . ونشر الاعتاب في طي العتاب . وروح الارضاء في شخص الاغضاب . وبرد الموهبة في برد المهابة يرد ظن الخطأ الى يقين الاصابة .

وشرف من الديوان الأخ ، فسار وهو يبذخ وقد أصحب خيلا ، وأسحب من التشريف والانعام نيلا ، وألحف من نور الاهبة العباسية نهارا وليلا ، فوصل السير بالسرى وقطع الوهاد والذرا وجاء الى دمشق بشارة رائقة وبشارة رائعة واشارة رادعة وشعار مهيب . وشرع مصيب . وهيبة روعة امامية ، وهيأة عصمة عصامية وفرند نبوي لاينبو ، وزند وري لايكبو ، ولسان في الصرامة جري ، وجنان بالشهامة حري.وبلاغة بابلاغ . ماليس بلاغ.وفئة وافية وصيغة بصياغة كل غريبة قول ، ورغيبة طول . وكافلة كافية وسني ذور وقار يستعير منه سنير . وثبات خلق يتخلق به ثبير ، وكان قد عاد المندوب نادبا عاديا . جاحدا للنعمة شاكيا . ذاكرا أنه عدم الحفاظ . ووجد الاحفاظ . وأكثر الكلام فما حرك شمام . وقال أخو العماد قد وصل بكل عتب ممض . وخطب مقض . وغضب مغض . ولفظ فظ . وحض على غير حظ . ومعه الملامات المؤلمات . والظلامات المظلمات . فقلت له : اسكت واصمت ، وبمالك من وسم الوصم مت ، ولاتدخل هذا الباب واخرج ، وليس هذا بعشك فادرج.وقلت للسلطان سمعا وطاعة لأمر الديوان فان اظهار سر العتب لك من غاية الاحسان ، فقال : نعم ماقلت ، وقد طلت بارسال أخيك وطلت وماأسعدني اذا شرفت بالعتاب . واسعفت بالخطاب ، والمملوك يدفعه التأنيب . ويزعه التهنيب . على أننا لم نأت الا بكل ماوقى الهدى . وأضعف العدى . وكف الكفر . وأدنى الدين . ومازلنا في طاعة أمير المؤمنين مجدين . أما فتحنا مصر وقد باضت بها دعوة الدعي وفرخت . أما استأذفنا بها تاريخ الدولة العباسية بعد ان كانت سنين بسواها أرخت ، أما استخلصت اليمن

وللدعي بها داع ، وللهدى فيها ناع . وللضلال منها راع ، أما أرحت من رق الشرك الساحل . أما ازحت عن حق الملك الباطل ، أما فتحت البيت المقدس والحقتة بالبيت الحرام ، وألحفته رداء الاكرام.واعدت الى الوطن منه غريب الاسلام . أما رعت الغرب بغرب عزمي . ووزعت الشرق بشرع حكمي ، وماتعبدت الا بالعبودية للدار العزيزة . وهذه الفطرة متمكنة مني في الغريزة . فأهلا وسهلا بالرسول . وبالسول وحبا ومرحبا بالاقبال والقبول . وماأتى الا بالحب والحبور . ولامرار الامور . ولاظهار سر السرور . والبارق يشام اذا رعد ، والصادق يرام اذا وعد ، وماأسرنا بالواصل وأوصلنا بالمسرة ، وأبرنا بالجد واجدنا بالمبرة . وسمعت منه كل ماهدى سمعي . وابدى لمعي . وجمع شملي . وشمل بالعز جمعي ، ولما قرب اخي واصبحت لقدومه انتخي فأمر السلطان الأمراء على مراتبهم باستقباله ، وتقدم لجلالة قدومه باجلاله ، ثم ركب وتلقاه بنفسه ، وخصه من تقريبة بأنسه ، ولم يزل حتى اراه مواضع الحصار ، ومضار الكفار ، ومواطىء اقدام ذوي الاقدام . ومواطن بسالة اهل الاسلام . ثم نزل وانزله بالقرب وعقد له بالحباء حبي الحب ، وسفر وجهه لوجاهة السفير . وأحل محل التوقير والتوفير ، وتبلج له صبح التبجيل . وتأمل منه نجح التأميل . ثم حضر عنده . وقد اخلي مجلسه لي وله وحده ؛ وأدى الأمانة في مشافهته ، ووجه مقاصده في مواجهته واحضر التذكرة وقد جمعت المعرفة والذكرة ، فقراتها عليه بفصولها وفصوصها.وألزمته حكمي عمومها وخصوصها • ووقفته على ظواهرها ونصوصها • وكانت في الكتب غلظة عدت من الكاتب غلطة وخيلت سقطه ، وجلبت سخطه ، وقال ان الأمام أجل ان يأمر بهذه الألفاظ الفظاظ • والأسجاع الغلاظ فقد أمكن ابداع هذه المعاني في أرق منها لفظا وارفق وأوفى منها فضلا وارفق • ومعاذ الله ان يحبط عملي ، ويهبط أملي. وامتعض وارتمض.ثم اعرض عما عرض ورجع الى الاستعطاف • وانتجع بارق الاستسعاف • وقال اما ماتمحله الاعداء وعدا به المتمحلون • وتذفق به المذقولون وتسوق

المبطلون • فما عرف مني الا الاعتراف بالعارفة • وماهزرت منذ اعتززت اعطاف العز الا لما يعزني من العاطفة ، وان شرفي بالنعمة السالفة ، يوجب أنفي من هذه الأنفة ، وأما النعت الذي انكر ونبه على موضع الخطاء فيه وذكر • فهذا من عهد الأمام المستضيء رضوان الله عليه وجرى لتحققه مني على الالسنة . ومتي عد سيئة ماعد من الحسنة ، والآن كل مايشرفني به امير المؤمنين من السمة فانه اسمي الذي هو اسمى واشرف . واطرأ وأطرف وأرفع وأعرف . ومازاده ذلك العتب الاخلوص ولاء ، وخصوص اعتزاز واعتزاء . ثم قال كل ما اعتمده من نصرة الدين وقهر اعداء امير المؤمنين فإنما طلبت به وجه الله ورضاه وماتعبدت به سواه . فاني افترض الطاعة الامامية الدين لا الدنيا، وماأتقوى فيها الا بالتقوى . وما في عزمي الا استكمال الفتوح لامير المؤمنين وقطع دابر المنافقين والمشركين . واذا عادت عواطفه عطفت علي في الحسن العوائد وقطفت الفوائد ، وصفت الموارد ، ووفت المقاصد ، وبعد الأباعد ، وبعد الحاسد الحاشد ، وهجر هجر الساعي ، واجرى اجر الداعي . وعلم جهل الواشي ، وعذر ذعر الخاشي . وجرب غش الغاشي . وخرب عش العشي . وذوت همموم ذوي الهمم ، وأوليت كرامة أولي الكرم ، ومازال السلطان مدة مقام أخي عنده ، يوري في اعظامه زنده ، ويأمر بإكرامه جنده ، فكنت اشفق من تكدر ذات البين بعود الانس والوصلة والى الوحشة والبين ، وان جماعة من الأكابر اجتمعوا بالسلطان وقالوا له:قد نسب حقك الى البطلان . ورميت بالبهتان ولحت طاعتك بعين العصيان . فكيف خفت وماعفت والفت ومـا انفت . ورغت ومـا غرت . وصبرت وما سبرت • وأغضيت لما اغضبت • وأعتبت لما عوتبت • وراقبت ومـاروقبت

فقال تذللي للديوان العزيز تعزز به أدين . وتوسلي إلى مرضاته توصل بالله فيه استعين . فتواضعي ترفع ، وتخشعي تورع ، وحبل حبي متين ، ومكان قربي مكين . ومما قلت له واوضحت له سبله ، انا كنا بطاعة امير المؤمنين نطول ونصول

ونزاول بها الملوك وعنها لانزول ، وهذه فضيلتنا التي رجحت . ووسيلتنا التي نجحت وكنابها مسعودين . وعليها محسودين . وقد شملت بها بركاتها . وكملت حسناتها . وصفت مشارع يمنها ، وضفت مدارع حسنها ، فلا تلتفت الى من يلفتك ، ولاتتثبت لمن لايثبتك ، واعرض عمن تعرض لمذهب الخلاف ، ولذوره اجتلي واجتني ، ثم ندب مع أخي من سار في خدمته لزيارة القدس ، وامر بأن يقف به على مواقف الطهر التي طهرت من أهل الرجز والرجس ، ثم ودعه وأودعه من شفاهه كل مافي النفس وبالغ في ابداء التضرع والتذرع واظهار التخشي والتخشع ، وانشأت عنه الى الديوان كتبا معه وبعده ضمنتها كل ماحلا وجلا جدة وجده ، وكل مايبطل سوق المتنفقين ويعطل نفاق المتسوقين . ويهجن خلق المختلفين . ويزيل تلفيق الساعين . ويزيح سعاية الملفقين . ويتعرف الى العوارف الغزر بالشكر ، ويستعطف العواطف الغر بالعذر ، ويجتهد في استفراغ المجهود للاستغفار ، وينفض عن وجه البشر ماعليه من الغبار ، وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضا ومضى ماأمضى وقضى من اعزاز الديوان قدر السلطان بما قضى .

وفي هذه السنة استشهد الأمير شمس الدين بن المقدم بالموقف في عرفة لابداعه رسما ماعرفه ، فذهب غلطا وعطب فرطا.وذلك ان امير الحاج طاشتكين انكر عليه ضرب الطبل فامتنع ، فندب اليه من به بأصحابه أوقع ، فتمت من هذه الفتنة فترة ونمت نفره ، ولما نمي الخبر الى السلطان لم يبد منه سوى الاذعان وقال لاشك ان طاشتكين طاش ، وقصد بعد الايناس الايحاش ، وعد الديوان العزيز هذا من نذوب طاشتكين حتى عزله واعتقله بجرائمه بعد سنين .

نسخة كتاب جامع للفتح القدسي الأيمن انشأتها الى سيف الاسلام اخي السلطان باليمن ،

صدرت هذه المكاتبة الى المجلس السامي ضاعف الله علاءه ، وظاهر آلاءه وضافر نعماءه ، وأظفر بالنجح رجاءه ، وأضعف حساده ،وأعز أولياءه وأذل أعداءه ولا زالت أيامه بالايامن مسفرة ، ولياليه بالمحاسن مقمرة ، ومكارمه بالمحامد مثمرة ، وعهود مواليه بشكر النعم محكمة ، ومعاهد معاديه بقهر النقم مقفرة ، ودالة على البشرى بالفتح الاكبر ، والنجح الأزهر ، والنصر الأشهر . والعصر الأبهر . والفضل الأكثر . والافضال الأوفر ، واليوم الأنور ، واليمن الأنضر ، والفجر الأسفر ، والفخر الأظهر والجد الأشم الأشمخ ، والمجد الابلج الابلخ (٩) ، والعز الأسمق الأسمى . والنور الأنم الأنمى . والظفر الأجل الأجلى . والوطر الأحل الأحلى ، والشرف الأسنم الأسنى . والعزم الأغنم الأغنى ، والسعد الأجد الأجدى . والصيت الأبدي الأبدى ، وهو الفتح الذي تفوح بمحابه مهاب الفتوح . وتبوح بسر روحه وملكه سرائر الملائكة والروح . وتروح وتغدو غوادي النعم وروائحها الى روض الهدى المروح . وتلوح تباشير بشراه وفي لوح الدهر لكل مؤمن يتلقاها بالوجه السافر والصدر المشروح ، وتنوح ناعية الكفر في كل ناحية ولكل نادبة للأسى على قتيلها واسيرها ندوب في القلب المقروح ، وهو فتح بيت الله المقدس الذي غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنة ، وطال في اسره سجنه واستحكم وهنه ، وقوى نكره وضعف ركنه ، وزاد حزنه وزال حسنة ، وأجدبت من الهدى ارضه ، وأخلف مزنه ، وواصله خوفة وفارقه امنه ، واشتغل خاطر الاسلام لسببه وساء ظنه ، وذكر فيه الواحد الأحد ، الذي تعالي عن الولد ، وان المسيح ابنه وأربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه ، وأفرد عنه التوحيد فكاد يهي متنه ودرج الملوك الأقدمون على تمني استنقاذه فأبى الشيطان غير استيلائه باسفار صبح امرنا واشراق مطالع نفانه ، ونخر الله هذه الفضيلة

لنا ولهذا العصر . وأنزل على نصلنا نص النصر . وأطلع الليل عزمنا فجر الفخر ، ووفقنا لوصل اسباب الاسلام وقطع دابر الكفر ، وذلك انا استفتحنا سنة ثلاث وثمانين بقمع اهل التثليث ، وأصرخنا الاسلام بالجد المنجد والعزم المغيث ، وخرجنا من دمشق في المحرم ، في العزم المصمم . والرعب المجهر الى الكفر والبأس المقدم . وكنا اشفقنا على طريق الحج . من قصد الفرنج فشغلناهم عن القصد بقصدهم . وتصدينا لجهادهم بردهم عن المراد وصدهم ، وأقمنا بظاهر بصرى مخيمين على سمت الكرك ، وقدمنا الطلائع الى المناهل ونظمنا سلك امدادهم في ذلك المسلك ، حتى وصل الحاج سالما . وذل الكفر عن قصده راغما ، ولما فرغ القلب من شغله وفاز كل بجمع شمله بأهله ، سرنا الى الكرك في الامراء والمفردين الخواص . وشفعنا الجهاد في سبيل الله الفاتحة بالاخلاص ، وقد كنا استدعينا العساكر والجموع للجهاد من جميع الجهات . وترقبنا توافيهم للميقات ، وأمرنا ولدنا الملك الافضل ان يقيم برأس الماء ، ويكون في خدمته جميع الامراء ، وسرنا الى الكرك والشوبك فاخربنا عماراتها ، وأحرقنا غلاتها ، وقطعنا ثمراتها ، وأزعجنا ساكنيها ، وأخفنا آمينها ، وأجلينا عنها فلا حياء . وأقمنا الذوائح عليها في نواحيها ، ووصل الينا ونحن بالقريتين العسكر المستدعى من الديار المصرية ، فقويت به قلوب الأمة المحمدية ، واجتمع بالمخيم الافضلي برأس الماء من وصل من العساكر الشامية والفراتية ، والجزرية والموصلية والديار بكرية ، فانتهز ولدنا هناك فرصة الامكان ، وانهض الى الكفر سرية من اهل الايمان ، فساروا سارين . واغاروا غارين ، واخذوا ونهبوا . وسبوا وسلبوا فلم يشعروا الا وجموع الكفر قد سدت عليهم الطريق ، واخذت دون خروجهم الى السعة المضيق ، فثبتوا ثبوت الجبال للرياح العواصف ، وشرعوا الى عرانين الكفر اسنة الرماح القواصف ، وكان مقدم عسكرنا مظفر الدين بن زين الدين ومعه مملوكنا قايماز النجمي صارم الدين ، فلقيا بصدريهما صدور العوامل ، وحملا في عسكرنا على الفارس والراجل ، وحصل

الفرنج منهم في دائرة الردى ، وخذل الضلال ونصر الهدى وكثر من الفرنج القتلى والأسرى ، وعاد المسلمون بالمسرة العظمى والدبرة الكبرى ، واتصلت بنا ونحن في بلاد الكرك البشرى ، وشكرنا الله على نصرته الأولى وقلنا هذه مقدمة الاخرى ، ولما قضينا الوطر من تلك البلاد ، ووفينا باحراق اقوات اهل النار بالنار حق الجهاد . فاجتمعنا بأصحابنا القادمين من مصر وتناصرت لدينا دلائل الظهور وتظاهرت امارات النصر . عدنا الى الشام . وقد تكاملت به جموع الاسلام . وزخر بحر الفضاء بأمواج الاعلام . وطفا على اتباع لجه حباب الخيام وقد فض الفضاء ختام الفتام وعلق بالفلق من ذلك الفيلق غرام الرغام . فخيمنا بعشترا (١٠) شهرا . وقد أعدنا بشهر بنات الغمود سرها جهرا . وخطبنا من الله الكريم فتح بكر جعلنا بذل المهج لها مهرا . وقد سمع الفرنج بجمعنا فجمعوا . ونادوا في بلادهم فأسمعوا . واجتمعوا على صفورية من صفر . وحشروا في تلك الاشهر من جمعهم في المحشر جموع سقر . وأخرجوا صليب الصلبوت . وقائد اهل الجبروت . فتهافت الى شعلة ناره فراشهم . وتوافى الى ظلة ضلاله خشاشهم . وقاموا وقيامة رعبهم قائمة . وسوابح جردهم في بحر العجاج عائمة . وطلائعهم سارية وسراياهم طالعه . ومقدمات رعيهم منا السائرة لجذوبهم وقلوبهم مقضة خالعة . فلما تكامل منا الجمع . وأخذ بعجاجه وعجيجه على الآفاق البصر والسمع . عرضنا عساكرنا في يوم يذكر بيوم العرض . ويتلو مشاهده لتنزل الملائكة (ولله جنود السموات والأرض) (الفتح ٤٧) في رايات خافقة كقلوب الأعداء . عالية كهمم الاولياء . وسرنا في جموع ضاق بها واسع الفضاء . وسار في كتائبها نازل القضاء . وسحب ذيل الأرض بمثار نقعها . على السماء . وقطعنا الأردن . وتأييد الله مواصل . وقدره باقدارنا على الأعداء كافل . فما المنا بطبرية حتى فتحناها بالسيف . ودخلناها دخول المغير لا دخول الضيف . وتسلمنا المدينة . ونازلنا قلعتها البكر الحصينة . وذلك يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر والخميس يؤم الخميس . وأسد

الوغى قد اتخذت من وشيجها العريس . هذا والملك العادل عنا غائب . ومعه ايضا بمصر كتائب . وتوفيق الله له مصاحب . وكنا عزمنا قبل قصد طبرية . ان نلاقي الفرنج على صفورية . في مركزهم ومجتمعهم . ونلابسهم في مخيمهم . فحين نزلنا من الثغر بالاقحوانة (١١) . وتمسكنا من الله بالاستنجاد والاستعانة . ركبنا قبل قصد طبرية الى الفرنج في مجمعهم . واشرفنا عليهم في موضعهم . فما برحوا من مكانهم . ولا تحركوا برجالهم ولا فرسانهم . وارتدنا في صحراء لوبية موضعا للمصاف واسعا . وفضاء لمأزق الجمعين جامعا . وبتنا هناك باطلاب الابطال ميمنة وميسرة . ووجدنا بتأييد الله اسباب الظهور ميسرة ° وجئنا في خواصنا والجاندارية . ونزلنا في العدة المجردة على طبرية . واخذ الذقابون ساعة النزول في الذقب . فصرع قائم سورها للجنب . ودخل الناس اليها ليلا للنهب وكانت ليلة مدلهمة معتمه . وارجاء المدينة مظلمة . فاشعلوا وأوقدوا . ودخلوا الدور وتفقدوا مالم يفقدوا وكانت بها حواصل من زفت وكتان علقت بها النار . فاحترقت تلك المساكن والديار . وتحصن اهلها بقلعتها . وتمنعوا بمنعها . فأصبحنا على حصرها . وساكنا جدد الجد في امرها . فجاءت رسل الامراء . ان الفرنج قد تحركت . وانزعجت لكون عقيلتهم من طبرية تملكت . وادركهم الندم كيف تركت وما ادركت . وأنها قد عبت جذوتها . وشبت وقودها . ولبت نداء جموعها . وصبت عليها ماء دروعها . وغاضت في غدران سوابغها السابرية . وفاضت ببحار سوابحها الأعوجية . وان جمرهم قد استعر . وان بحرهم قد زخر . وانهم قد اتوا في عددهم وعديدهم . وحدهم وحديدهم . وخيلهم ورجلهم . وطلهم ووابلهم . وفارسهم وراجلهم . واحزاب ضلالهم وابطال باطلهم . وانهم حين عرفوا استيلاءنا على طبرية . وسبقنا بفضيلة فتحها البرية . غاروا على العقيلة السبيه . واشعلت نخواتهم نار الحمية . وساقوا الى معترك الردى وملتقى المنية . ولما عرفنا قربهم . قصدنا حربهم . وزحفنا اليهم . واشرفنا عليهم . والجب

الساري كالجبل الراسي . وقد افاض الحديد من قلبه على الحجر القاسي . ولمعت بوارق بيارقه . وراعت طوارق طوارفه . وبرقت قواذس قوامصه . وارتعدت فرائص فرافصه . وأمكنت فرائس فوارسه . وباح الحديد على عوابسه بوساوسه . وماجت بحار سلاهبه . واشتعلت نيران قواضبه . وشدت الاجادل دون صوار صوارمه . وسدت بعرض افواجه فجاج مخارمه ، وقرنت الالفات بلاماته . وظهر من حشره يوم الحشر بعلاماته . فاغتنما الفرصة في اللقاء . وهجنا الى الهيجاء . واسرعت الاعنة . واشرعت الاسنة . ونقع النقع .(١٢) أوام الجو . واجاب الصدى دوي الدو . وجال الجاليش . وطار السهم المريش . وعصفت رياح السوابق . واستعبرت عيون البوارق ، ولقيناهم في عرمرم عارم . ومجر جارم . وعوامل جوازم . وصواهل صلادم . وضراغم ضوار . وجوارح جوار . واسود قد اعتقلت اساود . وجياد قد حملت اجاود . وسوابح قد أقلت بحورا . وصقور قد ركبت صقورا . واوقفناهم نهار يوم الجمعة وساكنهم لا يتحرك . وبازلهم لا يبرك . وصفهم لا ينفض وجدارهم لا ينقض.وبنيانهم مرصوص . وطائرهم عن الطيران محصوص . حتى دخل الليل . وقر في الوادي ذلك السيل . وبات الفريقان على تعبيتهما . واجابة داعي الموت بتلبيتهما . واصبحنا يوم السبت واهل الأحد على حالهم ولم يريموا موضع قتالهم . ومازالت الحملات تتناوب . والاسلات (١٣)تتواثب وتتثاوب . والسواعد بقرع الظبي سواع . والرواعف في زرع الطلى رواع . والمنايا تئن . والبيض تصافح البيض صفاحها . والذكور لنتاج الحرب العوان بالفتح البكر عند اللقاء لقاحها . والذوابل في اشاجع الشجعان ذواب . والصوارم لجوامح النيران شواب . وضمائر الغمود قد باحت باسرارها . ونواظر الجفون قد تخلت عن غرارها . ولما احسوا بأسنا . وامرار أمراسنا والهجير يتلظى وقد وقد عليهم بناره . والأ وام يتوقد ولايتوقى احراقهم باواره . مالوا الى طلب الماء . واخذوا طريق البحيرة للارتواء . فأخذنا عدامهم ووقفنا امامهم . وحلأناهم عن

الورد . والجأناهم الى الردى بالرد . فاعتصموا بتل حطين . وصرنا بهم محيطين . وتحكمت فيهم قواضي القواضب . ونشبت من النشاب بهم نيوب الذوائب . وكان جمعهم جمرا وقد وقد . فصب عليهم السيف نهرا فخمد . وفضوا بالفضاء . وفرشوا بالعراء . وعب دأماء الدماء . وغصت الفجاج بالقتلى والاسراء . واسر الملك واخوه . والابرنس الكركي ومؤازروه . ووجوه الكفر ومقدموه . ومقدم الداوية وأعوانه . وصاحب جبيل واعيانه . وهنفري بن هنفري وابن صاحب اسكندرونة وصاحب مرقية . ولم يفلت الا ابن بارزان والقومص (١٤) . وتم لهما من الورطة المخلص وكان كلاهما ملهما عند اللقاء بالقتال . وعند الفرار بالاحتيال . فاما القومص فانه لما مر بطرابلس ادركه الموت في برجه المشيد . ونقله القدر المبيد الى عذابه المؤبد . وذل ذلك اليوم أهل الجبروت . وحيز صليب الصلبوت . وبار وباد اولياء الطاغوت . وهلك عبدة الناسوت واللاهوت . وملك عليهم القدر كتاب الاجل الموقوت . وقدمنا الابرنس وضربنا رقبته وفاء بالنذر . وعجلنا به الى النار مأوى أهل الغدر . وألحقنا به الداوية والاسبتارية . وادرنا عليهم صبرا كؤوس المنية . وروينا ظماء القلبى من نجيعهم . وقربنا سيد الفلا من صريعهم . وعدنا الى طبرية فتسلمنا قلعتها . وحللنا عقدتها وفرعنا ذروتها . وافترعنا عذرتها . ثم سرنا الى عكا ففتحناها بالامان . واعلنا بها شعار الايمان . واستقربنا بعدها البلاد الساحلية من جبيل وحد طرابلس الى الداروم غير صور فانها امتنعت بسورها . ولم يبق في كأس الكفر غير سورها . وانها وجدت فسحة في ايام اشتغالنا بفتح اخواتها . وكثفت من عدد المحاصرة الاتها . وكنا لما فتحنا عسقلان بدانا بالنزول على القدس وذلك يوم الجمعة ثالث عشر رجب ٠ فرجف بها قلب الكفر ووجب . وظن اهلها انهم يعتصمون . وانهم من بأسنا يسلمون . فنصبنا عليهم منجنيقات هدت احجار السور بسورة احجارها . وانن ركوعها بسجود الابراج في اجبارها .

ووفت الصخور باصراخ الصخرة . وعثرت تلك القلل لاقالة مادام بها من العترة . وكشف الذقب وثقب الاسوار . ورمت الجنادل جوانب ذلك الجدار . وعلم الكفار لمن عقبي الدار . وأيقنوا بالقتل والاسار . فخرج مقدموهم متذللين بالاذعان . مبتهلين في طلب الامان . فأبينا كل الاباء . الا سفك الدماء من الرجال وسبي الذراري والنساء . فخوفوا بقتل الاسراء . واخراب العمران وهدم البناء . فأمناهم على قطيعة موازية لاثمانهم لو اسروا او سبوا . فأمنوا . من ان يسلبوا وهم على الحقيقة قد سلبوا . ومن وفى منهم بالقطيعة خرج بحكم العتق . ومن عجز عن ادائه دخل تحت الرق . وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس الى تقديسه ورجع بنيانه من التقوى الى تأسيسه . وزال ناموس ناقوسه وبطل بنص النصر قياس قسيسه . وفتح باب الرحمة لاهلها ودخلت قبة الصخره لفضلها . وباشرت الحياة بها مواضع سجودها . وصافحت ايدي الاولياء اثار القدم النبوية بتجديد عهودها . وشوهد مقام المعراج وموطىء براقه . ورئي نور الاسراء ومطلع اشراقه . ودنا المسجد الاقصى للراكع والساجد . وامتلأ ذلك الفضاء بالاتقياء الاماجد . وطنت اوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس . وجليت هدى الهدي من الصخرة المقدسة جلوة العروس . وزارها شهر رمضان مضيفا لها نهار صومها بالتسبيح وليل فطرها بالتراويح . وشفى الله بسقيا هذا الفتح ماكان دهم القلوب لاجلها من تبار التباريح . فالبيت الحرام مساو للبيت المقدس . مفدى منا كلاهما من المهج والانفس بالانفس . وانه من المساجد الثلاثة التي تشد اليها الرحال والرجال . ويضيق عن وصف شرفها في حلبة البيان المجال . وهو للحرمين ثالث ولاتثليث في حرم توحيده . فتجدد جد الاسلام بتجديده . ولما فرغ البال من تدبيره . وقضينا حق تقديسه وتطهيره . صرنا الى صور . ونازلناها بعسكرنا المنصور . وفي صور سؤر الكفر وبقيته . وقد تحصن بسورها ومنعته شر ذمته . وهي مدينة حصينة . متوسطة في البحر كأنها سفينة . وقد نصبنا عليها المنجنيقات فذكأت فيها . ورمت من اعاليها وهدمت من مبانيها . ولم يبق في جعبة الكفر سوى نشابها . وان جمحت علينا

فنصرة الله وعوائد تأييده لنا تـؤذن بـأصحابها . واذا تسـلمناها تسلمنا بأذن الله كل بلد للفرنج باق . ومالهم من عذاب الله الواقـع بهم واق . ثم رأينا ان حصـار صـور يطـول . وان مسـألة بيكار (١٥) العسكر فيها تعول وان فتحها لايفـوت . وله وقتـه الموعود ووعده الموقوت . وكان العسكر قد ضجر ومل وأعيا وكل . وقد دخل الشتاء . وبرد الهواء . وجاءت السماء وتواترت الانواء ، وتواصلت الانداء . ولابد مـن اسـتئناف جمـع العسـاكر في ايام الربيع . واستمداد النصر الذي يضم لاستجداد الفتح شمل الجميع . ورحلنا عنها بعد ان رتبنا حولها . في الثغور المجاورة لها . مـن يديم شـن الغارات عليها . ويواظب على النهوض اليهـا، وفسـحنا لاجنادنا في الاستراحة مـدة شـهرين الى النيروز . فـان في تلك الايام تتـوفر العزائم على المبارزة والبروز . وقد جـرت المواعدة على المعـاودة . والمعاقدة للمعاضدة . والمعاهدة للمسـاعدة . فليس في الفـرنج مـن يقاتل الان على الخيل . والنهـار عليهـم في اظـلام الليل . والعـز متقلص الظل عنهم والذل صافي النيل . وقد حزب حزبهم من حـربنا مثير الحرب والويل . وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة . والمعاقل المبينة . وهـي: طبـرية . عكا . الزيب . معليا . اسـكندرونة . تبنين . هونين . الناصرة . الطور . صـفورية . الفولة . جينين . زرعين . دبورية . عفربلا . بيسان . حيفا . صرفند . صيدا . قلعة ابي الحسن . جبـل جليل . بيروت . جبيل . مجـدل يابـا . مجـدل حباب . الداروم . غزة . عسقلان . تل الصافية . التـل الاحمـر . الاطرون . بيت جبـريل . جبـل الخليل . بيت لحـم . لد . الرملة . قيتا . القدس . صوبا . هرمس . السلع . عفرا . الشـقيف . ولم نذكر ماتخللها من القرى والضياع والابـراج الحصـينة الجـارية مجرى الحصون والقلاع . ولكل واحدة من البـلاد التـي ذكرناهـا اعمال وقرى ومزارع . واماكن ومواضع . وقـد جـاس المسـلمون خلالها . واسترعوا ثمارها وغلالها . وقد كنا عند قصـدنا البـلاد . وعرضنا للجهاد الاجناد . كاتبنا اخانا الملك العادل سـيف الدين ان يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب . وينتظر كتابنا بنصر هذه الكتائب . فلما بشر بكسر الفرنج وفتح طبرية وعكا . والظفـر الذي

اضحك الاولياء وازعج الاعداء وابكى . وتلا عليه (قد افلح المؤمنون) (المؤمنون ١) وقد (افلح من تزكى) (الاعلى ١٤) كان وصل الى السواد في سواده وبياضه . وبحار جيشه وبراضة . وورد من مورد النصر الى حياضه . فجاش بجيوشه . وجاز العريش بعريشه . وزار دار الداروم بدمورها . واجفلت قدامه البلاد في كل من اعتمد عليه بامورها . ووصل الى يافا ففتحها عنوه . ونال العسكر منها بالنهب والسباء حظوه . ثم حضر مجدل يابا وحصرها . وطلبت منه الامان فانظرها . وكتبنا اليه بالاقامة في ذلك الجانب . ماضي العزائم قاضي القواضب . وان يستفتح من البلاد مايتعجل فتحه . ويقدم من الرجاء مايتيسر نجحه . الي ان نفتح مافي جانبنا من البلاد ونتسلمه وننتهز فرصة الامكان فيما نحن بصدده ونغتنمه . وقد كنا انهضنا الى كل بلد من الناصرة وصفورية . وحيفا وقيسارية قسرا وتسلمت البواقي سلما . ورأى من كان فيها سلامته غنما . ورضي بالغرم رغما . وتسلمنا نحن تبنين وبيروت بالامان . بعد ان قاتلنا اهلهما قتالا شديدا الجأهم الى الاذعان . فاما صيدا فان صاحبها اذعن الى التسليم . بعد ان بات منا بليلة السليم . واما جبيل فقد سلمها صاحبها وخلص من الاسر . ورأى خلاصه فيما تعجله من الخسر . وحينئذ سرنا واجتمعنا بالملك العادل على عسقلان . وهان لنا كل ما استصعب منها ودان . وظهر لنا منها وجه الفتح وبان . واصبنا فوائدها لما رميناها بمصائب . واصمينا مقاتل الاسوار بسهام قسيها . وعاقبناها بحيالها وعصيها . واقتدنا بخزائم الكرة اذف الطاعة من عصيها . وصافحنا ببيض الصفائح يد الرضا من أبيها . وباشرت سهام المجانيق بسواكها ثنايا الشرافات فهتمتها . ونهضت احجار الرماه الى احجار البناء فهدتها وهدمتها . وغنى فيها معول النقاب . ولما ايقن اهلها بالعطب . لاذوا بالضراعة والطلب . وخرجوا مسلمين مستسلمين . وانقادوا مستكينين مذعنين . واسلم البلد واسلم وجدع اذف الكفر وارغم . وعاد منه الايمان الغريب الى وطنه . وقر منه الاسلام القريب في مسكنه . وعند ذلك تسلمنا غزة . واعدنا اليها العزة . واتينا على الرملة ولد والنطرون . وفتحنا بيت جبريل وجبل

الخليل وجميع تلك المعاقل والحصون . ثم ختمنا فتوحات هذه السنة بفتح الارض المقدسة . والحمد لله على نعمه المفرجة للكروب والطافه المذفسة . وقد جعلنا هذه البشارة القدسية . بما هناه الله من الموهبة السنيه . وسناه من المنحة الهنية . لمولانا حسام الدين سنقر الخلاطي وامرناه ان يسير فيها من اصحابه . من يقوم فيها بحق منابه . والمجلس السامي يشيع ميامنها ببلاد اليمن . ويجلو عروسها البكر في حسنها الحالي وحليها الحسن . ويشكر نعمة الله التي خصنا بها وعمت الامة . ويديم شكرها فان دوام الشكر يديم النعمه . لازال المجلس مشكور الشئمه عالى الهمه . منصور العزمه . ان شاء الله .

ودخلت سنة اربع وثمانين وخمسمائة

والسلطان مقيم بعكا وربيب الربيع رضيع . ووشي الروض وشيع . وصنيع القدر نصيع . وشمل الظفر جميع . وفضاء الروض وشيع . ومراد المراد مريع . ونسيم الاسحار لاسرار الازهار منيع . واريج الجو العليل في شفاء غليل الجوي شفيع . والدهر قد ثمل وافاق . والزهر قد شمل الافاق . وللمحاب مهاب . وفي الشعاب اعشاب . وخدود الشقائق محمره . وثغور الاقاحي مفتره . وعيون النرجس مصفره . وشفاه المنابع مخضرة . واحداق الحدائق الناضرة ناظره . ووجنات الجنات الزاهية زاهرة . وعذبات المنابت متموجه . وحافات المناهل متدبجة . وجباه الغدران متغضنه . وجفون الذوار متوسنة . والافنان مورقة والورق متفننه . وخد الخبري مورد . وحد العراد مجرد . وعرف البهار قد تأرج . ووجه الجلنار قد تضرج . وعذار البنفسج قد بقل . وعذر الزمان قد قبل . وشارب الذبت قد طر . وهارب البرد قد فر . وسر الصيف قد سرى وسر . وطبي الطيب قد حفل ودر . وتقاضى السلطان غريم عزمه

بدين الدين . وان ان يصحر ليث بأسه الخادر من العرين . فأبرز مضاربه . وجهز كتائبه . وضرب سرادقه . وعرض فيالقه . ونشر بيارقه . وحشر رواعده وبوارقه . واذفق خزائنه . واذفد دفائنه . وبذل في صون الدين ديناره . واشعل في حفظ ماء الهدى على العدى ناره . وسار على سمت حصن كوكب . وعن قصده ماتنكب . ونزلنا عليه في العشر الاوسط من المحرم . ومامنا الا من له بقتال العدى فيه لهج المحب المغرم . ولعزمه وهيج اللهيب المضرم . ووجدنا كوكب في سمائها كأنها الكوكب . وظن الفرنج انها لاتنكأ ولاتنكب . وهي من المصاعيب التي لاتبرك ولاتركب . فأحطنا بالحصن وخيمنا حوله . واستمددنا قوة الله وحوله . وزحف اليه الرجال . وتناوب عليه القتال . وركب اليه السلطان ورازه . واستصعب احتيازه . ورأى ان مقاتلته تطول . وان مسألته تعول . وان محاولته في مطاولته . ومصابه في مصابرته . واضاقته في مضايقته . وان مافي هذه الحال اقتضى تعذر افتضاض عذرته . ولامطمع الآن في فرع ذروته . ولاقرع مروته . وكان في خواصه . واهل استخلاصه . لم تتجمع عساكره . ولم تتموج زواخره . فاقام هناك بالتدابير مستغلا وللاشغال مدبرا . وبالاستظهار متأيدا . وبتأييد الله مستظهرا . حتى رتب على قلعة صفد خمسمائة فارس . من كل محرب للحرب ممارس . وسلمهم الى طغرل الجاندار . لمرابطها بالليل والنهار . ووكل بكوكب قايماز النجمي في خمسمائة مقاتل . من كل ناصر للحق وللباطل خاذل . وكان سعد الدين كمشبه الاسدي بقلعة الكرك موكلا . وبحفظها مكفلا .

ذكر حال الكرك من اول الفتح

وقد مضى ذكر وقوع ابرنس الكرك في الشرك . بمعتكر يومه في المعترك . وافتتاح الفتح بحتفه . وبسط كتف الانتقام عليه بقبضه وكفه . وانه اخذ رأسه . وقطعت انفاسه وقلعت اساسه . وكانت

زوجته ابنة فليب صاحب الكرك بالقدس مقيمة . ولحفظ معاقلها مستديمة . وحصل ولدها هنفري بن هنفري في قبض الاسار وقيد الخسار . وغمه الانكساف والانكسار . فلما يسر الله فتح البيت المقدس . واصبح الاسلام عالي اليد والكفر راغم المعطس . خرجت صاحبة الكرك متعرضة للخضوع . متضرعة بالخشوع . وبرزت مسكينة مستكينة . متعطفة مراحم السلطان مستلينة . رافعة عقيرتها بالابتهال . شافعة في فك ولدها من الاعتقال . معفرة خدا من شأنه التصعر . مسفرة عن وجه من عادته التخدر . حاسرة خسرى . باسرة لحزنها بأسرى . والدة تنشد ولدها . والهة دخل الرعب خلدها . مطلقة ميسورها . مستطلقة مأسورها . ثانية عطف العطف لواحدها . رانية بعين الذل في خلاص ساعدها ، سائلة في فلذة كبدها . جائلة بجذوة كمدها . باسطة يدها . ناثرة خرزات دموعها . عاثرة بحزازات ولوعها . خافضة جناح استعطافها . ناهضة في نجاح استسعافها . راجزة بذوحها . عاجزة عن بوحها . وخرجت معها زوجة ابنها ابنة الملك . كأنها من بنات الفلك . باديا صبح وجهها اليقق (١٦) في ليل شعرها الحلك . مشرقة من اوجها . مشفقة على زوجها . محترقة على فداء الحليل . مقترحة به شفاء الغليل . خادرة قد اصفرت من مطالعها واصحرت . حادرة عبرة في مدامعها طحرت (١٧) . ناهدة متنهدة . واجدة متواجدة . معتزة متذللة . مهتزة متململة . باكية متلهفة . شاكية متأسفة . مستدعية مستعينة . عاطية مستعطية . ساكبة عبراتها . راكبة عثراتها . خامشة وجناتها . خادشة بشراتها . وحضرت الملكة في زوجها الملك خاطبة ولقرمها الندب نادبة . قد أذعنت وعنت لفكاك عانيها . وطلبت بطلها الذي هو عامر دار عزها وبانيها . فاكرم السلطان وفادتهن . ووفر افادتهن . وقرب ارادتهن . وقرر زيادتهن . ووهب لهن ولاتباعهن واشياعهن ما كان يلزمهن ويلزمهم من مال القطيعة . ووصلهن بصلاتة الرفيعة . وخصهن بمالاق بكرمه من حسن الصنيعة . ووثقهن بنجح الذريعة . وأما الملكة فانه مكن محلها . وجمع بالملك شملها . وتقرر مع صاحبة الكرك اطلاق ابنها على تسليم قلعتي الشوبك والكرك . ودخولهما في معاقلنا وخروج

اصحابهما منهما في الدرك . فاستحضر ابنها هذفري من دمشق اليها واقر برؤيته عينيها . وسار معهم من الامراء الامناء من يتسلم منهم تلك المعاقل . ويحوز من تلك العقيلة العاقلة تلك العقائل ، فمضت اليها مع ولدها . حسنة الظن بأهل بلدها . فلما وصلت قاطعوها . ودافعوها عن حصونها ومانعوها . واخلفوا ظنها وخالفوها . حيث ما ألفوها كما ألفوها . وجنحوا وجمحوا . واجترأوا عليها واجترحوا . وعصوها وأقصوها . وعددوا عليها الذنوب واحصوها . وأفحشوا لها في خطأ الخطاب . وأوحشوها بالتنحي عن صوب الصواب . وسبعوها وسبوها . والى موافقة الاسلام نسبوها . وكلما لاينتهم خاشنوها . وكلما قاربتهم باينوها فوجدت ذبوة ذوابها . وعدمت إصحاب أصحابها . وذكرتهم بحقوقها . وحذرتهم من عقوقها . ولاطفتهم فغلظوا . واسترضتهم فاحفظوا واسترعتهم العهد فما حفظوا . ونبهتهم لأمرها فما استيقظوا . وانفصلت عنهم خائبة مخفقة . هائبة مشفقة . تخشى من رد ولدها الى السجن . وعودها من الاصحاء الى الدجن . ومضت الى الحصن الاخر . فحصلت منه على صفقة الخاسر ، فانها لما المت بالشوبك ألمت من شوب كدرها واملت نفعها فعادت بضررها . ولقيت من ذوابها ذوائب . وفي موارد المراد منها اقذاء وشوائب . فآبت بالامل الخائب والعمل العائب . والخوف الصادق والرجاء الكاذب . فلما رجعت قبل السلطان عذرها . وازال ذعرها . وأعلمها بان ولدها محفوظ . وبالرعاية ملحوظ . وبالعناية به محظوظ . وهو في حصن السلامة الى ان تتسلم الحصون . واذا بذل مصونها بذلنا لك منه المصون . فسكنت الى الوعد . وسكنت بعكا في ظل الرفد والرفد . ثم انتقلت قبل خروجنا من عكا ٠ الى صور ٠ واستودعت السلطان ابنها الماسور . وأمد السلطان سعد الدين كمشبه في حصار الكرك والشوبك بامراء يساعدونه في الحفظ واليزك . فأقام على كل قلعة من يكفي لمحاصرتها . ويفي بمصابرتها . ويلبث في مقابلتها . ولايعبث بمقاتلتها . فانها تبقى على قوتها مالم تقو (١٨) من قوتها . وتدوم على طغيانها مالم يذل عز طاغوتها . فلما رتب

السلطان هذه المراتب . ورب هـذه المآرب . أقـام حتـى وثـق باستمرارها وتحقق حق استقرارها .

ذكر مادبره في عمارة عكا

اختلفت الاراء في امر عكا فانها كانت مـدينة متخـرقة . وبيوتهـا متفرقة . وسورها غير معمور . ومعظمها بـلا سـور . ورأوا أن في ابقائها خطرا . وأن في اخلائها ضررا فمـن اصـحابنا مـن اشـار بخرابها وحفظ الحصون . وبناء قلعة القيمون . ومنهم من قـال اذا صينت عكا ملك البحر . وهلك الكفر . وكانت على البلاد الساحلية قفلا . وكانت بها بلاد الكفر غفلا . فمن قـائل بـابقاء بـرج الداوية لحفظ ميناها . ومن قائل نختصرها من أنناها . ومن قـائل نجـدد سورها . ونحكم أمورها . ونبقيها بحالها . ونعمرها بكمالها . على أن أسوار هذه البلاد سيوفها التي هي عند الفتوح مفاتيح اقفالها . وأجالوا الفكر فيمن يجلي غوائلهـا . ويحلي عواطلهـا . ويتـوحد بتدبيرها . ويتفرد بتعميرها . ويجتهد في تسويرها .

ذكر وصول بهاء الدين قراقوش لتولي عمارة عكا

فقال السلطان:ماأرى لكفاية الامر المهم . وكف الخـطب الملم . غير الشهم الماضي السهم . المضيء الفهم . الهمـام المحـرب . الذقـاب المجرب . المهـذب اللوذعي . المرجـب الالمعـي . الراجـح الرأي . الناجح السعي . الكافي الكافل بتذليل الجوامح . وتعديل الجوانح . وهو الثبت الذي لايتزلزل . والطـود الذي لايتحلحـل . بهـاء الدين قراقوش الذي يكفل جاشه بما لاتكفل به الجيوش . وهـو الذي ادار السور على مصر والقاهرة وفات وفـاق الفحـول بـاثار مسـاعية الظاهرة . فنامره ان يستنيب هناك من يستكفيه لتمام تلك العمارة .

ونؤمره لهذا الامر فهو جدير بالامر والامارة . وكوتب بالحضور . لتولي الامور . وعمارة السور . فوصل متكفلا بالشغل . متحملا للثقل منشرح الصدربالعمل . منفسح السر والامل . مبتهجا بالأمر . ملتهجا بالشكر . وقد استصحب معه كل ما يفتقر اليه من اسباب العمارة وآلاتها وأدواتها . واذفارها وأبقارها . ورجالها وعمالها وعمارها . ومهندسيها ومؤسسيها . وحجارتها ومعماريها . والاسارى والصناع . والنحات والقطاع والمال الكثير للنفقة والذهب الابريز والرقة • ومثل بالخدمة السلطانية على كوكب . وحضر الموكب وشرف باسني الخلع وأعطي الملبس والمركب وفوض اليه وقلده • واسعفه من عنده واسعده• وقوى جانبه • واعذب مشاربه وأوضح مذاهبه • وانجح مآربه • وأجد جده . وكثر مدده • ووفر عدده وعدده • وخصه بعطاياه • واستخلصه لوصاياه • فتوجه الى عكا وشغله متوجه • وعزمه متنبه وسره مترفه • وفكره في رياض الهدى متنزه • وامره ماض وحكمه قاض • والله عنه راض • وقام بما أقيم له • ونهض بالعبء وحمله • ومشى بكفايته عمله • وشرع في التعمير والتسوير • وتسوية الأمور بحسن التدبير • وسياتي شرح ما جرى بعد ذلك في مكانه • وما ظهر من حسن ايالته واحسانه .

ذكر وصول رسول سلطان الروم قليج أرسلان وغيره من الرسل .

لما شاع خبر السلطان باستيلائه على البلاد . واستعلائه في الجهاد . وتارجت الارجاء بعرف عرفه . وأرخت السير بمحاسن وصفه . عنت الامصار لمصره . وأعنت الاملاك لملكه • وانقادت الامراء القادة لأمره . وعادت مهاب المحاب تفوح بما له من الفتوح . وشروح ايراده واصداره تحل في صدر الزمان المشروح فتهيبه بالضراعة كل عظيم . وتأهب له بالطاعة كل اقليم . ورهبه ملوك الاطراف . وتعلق باستزادة الشرف منه اهل الاشراف . فكاتبوه

مستسعفين . وخاطبوه مستعطفين . وراسلوه بالتحايا . وواصلوه بالهدايا . ورغبوا في امتراء خلف الامتزاج . والاتشاح والالتحاف بحلف الاتشاح . وخطبوا الوصلة . وطلبوا الصلة . وكل يطلب لبلده منه امانا . وليده وقدمه من تمكينه وتاييده امكانا ومكانا . ويتوصل ويتوسل . ويتلطف ويتطفل . ويرسل ويسترسل . ويترجى مواهبه . ويتخشى عواقبه . ويديم التردد للتودد . والقصد لبلوغ المقصد . فما يعود رسوله الا بسوله . ولايقبل عليه منه الا بقبوله . ومن جملة الملوك المتقربين بالوداد . المتسببين الى حصول الاتحاد . سلطان الروم قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان . فانه بذل الاذعان . وسأل الاحسان . وأدى في المودة الامانة . وابدى الرغبة الاستكانة . واستنهض في سفارته السفير الالب . وندب الندب . وانفذ اكبر امرائه . واعظم سفرائه . وهو اختيار الدين حسن بن غفراس . وكان في دولته مقدما . وفي مملكته محكما . وعند اهل ولايته معظما . وقد استعلى عليه واستولى . واستبد بالتدابير عليه كأنه بملكه أولى . ولاتصرف له في ملك ولامال الا بتصريفه . ولاتعرف له عن حادث وحال الا بتعريفه . فوصل هذا الكبير بنفسه لتمهيد القواعد . وتشييد المقاصد . وتجديد العهود . وتاكيد العقود . وقدم مكرما وأكرم قادما . وخدم حاضرا وحضر خادما . وقبل البساط وبسط وجه القبول . وتمثل له الشرف فتشرف بالمثول . وحيا تحية المماليك للملوك . وحفظ الادب ولم يتنكب فيه عن النهج المسلوك . فتلقاه السلطان بالبشر والترحيب . والبر والتقريب . وأعزه بنزوله في ذراه . وأوعز بنزله وقراه . ووسع عليه من الانعام بما ضاق عنه أمله . وواصله من الجميل بما راقت تفاصيله وجمله . وشفع رسالته بالاصغاء . ورفع مقالته عن الالغاء . وسمع ما جاء به وأجابه . وابعد بانناء مآربه مارابه . وشافهه بشفائه . وأرواه بروائه . وأولاه لولائه . وعرفه بالتعريف الى آلائه . ونصبت له خيمة مسردقه . شهادات الاقبال الناصري لها مصدقة . ووجوه الكرامات بها محدقة . وسحب المبرات لها مغدقة . فأقام أياما بايامن مقيمه . ومحاسن من احسان الشيم السلطانية مشيمه . فلما استقام أمره استقل . واستدر له بارق البر من سماء السماح

واستهل . ومارام حتى نال مارام . ووثق لاحكام المواثيق الاحكام . ووصل في تلك المدة أيضا الصلاح قتلغ أبه . وهو اتابك قطب الدين سكمان بن محمد بن قرا أرسلان وافيا موافيا • باحسان الخطبة وخطبة الاحسان • راغبا في تتميم الوصلة • وتعميم الصلة • آخذا لصاحبه ملك ديار بكر عهدا محكما • وعقدا من الميثاق مبرما • وقد أحضر قضاة بلاده شهودا • واقتضى لصاحبهم بحضورهم عهودا • وكان قد خطب لصاحبه ابنة الملك العادل • ومت بكثرة الشوافع والوسائل • وكان خائفا على آمد فانها من فتوح السلطان • ووهبها لأبيه نور الدين بن قر أرسلان • فاشفق من استرجاعها بالحق بعد وفاة والده . ورأى الامن عليها وعلى جميع بلاده من أكبر مقاصده . ورغب في المصاهرة للمظاهرة . وان يفتح بها باب المزاورة للموازرة . فآواه الملك العادل الى ظل هذه المواشجة . وثبت بعقد المزاوجة حكم الممازجة . فتم أمنه . وعم يمنه . وزاد قربه . وزال رعبه . وجلس السلطان . وحضر عنده الاماثل والاعيان . ووكلني وكان وكيل أخيه الغائب . في انشاء العقد مع وكيل الزوج الراغب . فلما تم العقد باركانه . اعتضد ملك ديار بكر بمكانه . وسار صاحبه بالمسار مصحوبا . وعاد نيله بالفخار مسحوبا . وقال له:قد وجدت الحزن فلا تحزن . واشتد ركنك فالى سواه لاتركن . ومامن كبير أو أمير الا وقد وصل منه أكبر أمرائه . لينتظم بعهد السلطان في زمرة أوليائه .

ذكر رحيل السلطان صوب دمشق

وأقمنا على كوكب الى اخر صفر . ننتظر منها بمن كفر الظفر . ثم رأينا انه يطول حصرها . ولايفوت أمرها • وان الفتح يبطىء . وان كان السهم لايخطىء . فأمر الامراء الموكلين بها وبغيرها من الحصون . بالمقام عليها وابتذال سرها المصون . ورحل السلطان نحو دمشق طاهر الشيمة ظاهر العزيمة . سامي اللواء . هامي

الانواء • نامي الانوار في مطالع المضاء . ودخل اليها يوم الخميس سادس شهر ربيع الاول . بالصدر الارحب والباع الاطول . وتلقاه أهل البلد بوجوه لاقباله متهللة . وألسنة بالدعاء له مبتهلة . وعيون لانواره مجتليه وقلوب بولائه ممتليه . واسماع لامره مستمعه . وأيد إلى الله في نصره مرتفعة . وصدور بايامه منشرحة . وأمال في انعامه مدفسحة . ونفوس على طاعة الله في طاعته مجبولة • واعمال في رضا الله لمراضيه مبرورة مقبولة . ودخل المدينة . وأدخل اليها السكينة • فوجدت الروح بسلطانها . وعادت الروح الى جثمانها • وقرت به عيون أعيانها . واقرت له بحسنها واحسانها . وابتدأ بالجلوس في دار العدل . وبحضرة القضاة والعلماء من أهل الفضل . واسترفع قصص المتظلمين . واستمع غصص المتألمين . وكشف الظلامات المظلمة . وفصل الحكومات المستحكمة • وقرأ كل قصة . وقراها بكل حصة . وحقق الحقوق . ورتق الفتوق • وأقام للشرع السوق . وأتم لرجال الرجاء بعدله الوثوق . وحل بانصافه كل مشكلة . وطب باسعافه كل معضلة . واصحت سماء السماح . وأصحب جماح النجاح • وأعدى المستعدي • وأروى الصدي . وحيا الحي واورى الردي . ومجد المجدي • ومهد الحق حتى قيل هو المهدي . فما انقضى ذلك اليوم . وانفض اولئك القوم • الا عن مظلوم أجير بالحق . ومعلوم أجري من الرزق . وعالم أعين . وظالم أهين . وهاد زين . وعاد شين . ومختل سدد ومنحل عقد ومعتل شفي ومعتر كفي • وما حل جيد • وأمل زيد • وركن حق شد وشيد • وخدن باطل أبير وأبيد • وراح أدنى فوزه . ولاح أسني عزه • وجلس يوما آخر للاكابر والاماثل . والاكارم والافاضل . فاضاء النادي وفاضت الايادي • وغدق الندى وصدق الهدى . وكر الكرم . وفر العدم . وحفل الدر ودر الحفل . وشمل النظام وانتظم الشمل • وصان العلماء بالبذل . واعان بافضاله أعيان اهل الفضل . وفاز بالحمد وحاز الثناء . واجاز الشعراء واكرم الكرماء . وروح الرجاء . واولى النعماء . ونعم الاولياء وتقاضاه عزمه بالحركة لاستفاضة البركة . واستضافة المملكة الى المملكة . فلم تستقر به دار • ولم يدر به قرار . ولم يثبت في جفنيه غرار . ولم

يبت الاوبين جنبية لحب لقاء العدى اهل النار نار • وكان الصفي ابن القابض قد استجد للسلطان على بعض أبراج القلعة دارا . وأذهب في نضارتها ذهبا ونضارا . وهي متطاولة بين البروج مطلة على المروج ، مشرفة على موازاة الشرفين ، كاشفة غطاء النظر عن الغوطتين • صحيحة البناء ، فسيحة الفناء . بهية البهو . شهية الزهور . مجدة لأهل الجد ذكرى اللهو . فرشها بماء الورد . وفرشها بالورد . وبسط بسطها وعلق ستورها . واعلى ذورها . وحبر حبورها . وسرى سرورها . وسنى انواع نمارقها . وأسمى أنوار مشارقها . وتوصل الى حضور السلطان بها وجلوسه . وذهبت تباشير بشره بقطوب الزمان وعبوسه . واحضره كل مقرظ بقريض . وكل مؤمل بتصريح وتعريض . وكل ناشد ضالة رجائه بنشيد . وكل قاصد جلالة ارجائه بقصيد . وكل مغرد مغرب • وكل مطر مطرب . وظن ان السلطان تروقه تلك الحلية والحالة . وتلك الجلوة والجلالة . وتلك البقعة المؤسسة . وتلك الرقعة المقدسة . وذلك المشرف العالي . وذلك المشرف الحالي . وانتظر نظر استحسانه لاحسانه . وتوقع تمكينه لموقع مكانه . فما اعاره لحظا . ولا لمحة بطرف استطراف . ولامنحه حرف استعطاف . بل اعرض بنظرة عن تلك النضارة . وأغضى عن تلك الغضارة . وغض عن تلك الغضاضة . واشتغل عن تلك الرياض بالرياضة . فالعاقل من لايتخذ من دار الدوائر معقلا . ولا يجد في منازل الذوازل منزلا . ولا يركن الى فناء الفناء لبيب . ولا يسكن في غار الغرور اريب . وكيف يبني العمران والعمر الى الهدم . والغم في الدنيا الدنيئة عين الغرم . وقال السعيد من يبني دار الآخرة . وينجو من امواج الدنيا الزاخرة .

ثم صرف في تلك الايام الصفي عن ديوانه . وابقاه في شغل الخزانة على مكانه . وسمعته يقول في بعض محافله . وقد اجرى له حديث من يفرح بمنازله : كان من ذنوب الصفي عندي انه بنى لي تلك البنية . فدل على انه لم يوافق منه الامنية . وقال مايعمل بالدار من يتوقع المنيه . وماخلقنا الا للعبادة . والسعي للسعاده . ومايخطر

لنا في هذه الدار خلود بالخلد . ومـالنا وللمقـام في البـلاد والبلد . ومـاجئنا لنقيم . ومـاذروم (الا) ان لانريم . ومـــاتحركنا الا للسكون . وماا سهلنا الا للعود الى الحزون . فما يجنى ثمر الراحـة الا من مغرس التعب . ومايجنى نصيب المغنم الا من مغرم النصب . فأين الأين . الذي تقر به العين . ومايحصل السـكون في المسـكن . ولايكمل الوطر في الوطن . لا سيما والدين يطالبنا بـدينه . والكفـر يستقرب منا حين حينه . والبلاد سائبه . والبلاء هائبه . فلا تفـوح الفتـوح الا بهبـوبنا . ولاينزل النصر الا بـركوبنا . وغدا الحـزم متمما . والعزم مصمما . ووصـل الخبـر بـوصول عسـكر الشرق بالغرب الماضي ،والحد القاضي . والجمع الوافر الوافـد . والجمـر اللافح الواقد . وان عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي قـد اقبـل بقبيله. ووصل برعيله . وقدم بجده ، واقدم بحده . وانه حل بحلب ثم سار عنها مسارعا . وجاء معه الجيش للنجـدة والجـدة جـامعا . فأرهف العزم السلطاني خبر وصوله . وحـل بـالشد للرحيل عقـد حلوله . وكان القاضي الاجل الفاضل ذو الجلالة والفضل . والنباهة والنبل . متأخرا في بيته بدمشق لشكاة اقام في غبـرها . واسـتقام مزاجه الكريم منها وهو في ترقب زوال اثـرها . والسـلطان بنجـح سعيه متبرك . وبنصح رأيه متمسك . وبطوله عالم وبقـوله عامـل . وبعبارته قائل . ولاشارته قابل . فأراد السـلطان ان يقـدم بلقـائه الاجتماع . وبـرأيه الانتفـاع . ويسـتنير بنوره . ويسـتشيره في اموره . ويفاوضه في تفويضاته . ويقلده في تقليداته . ويتبرك بميامنه ويتيمن ببركاته . فانه طالما اجتلى سني السـعاده مـن مـطالعه . واجتنى جني الارادة من صنائعه . وافتتح الاقاليم بمفاتيح اقلامه . وجاءه بالوجاهة في دينه ودنياه باسعافه واسعاده . وكان قد خـرج الى جوسق الشرف الغربي الاعلى . ليتفرغ هناك للعبادة ويتخلى . فأصبح السلطان بـكرة يوم الثـلاثاء حـادي عشر ربيع الاول على الرحيل . فقصده لابرام ماوجده في مملكته من الامر السحيل . واقام عنده في الجوسق الى الظهر . مستظهرا به على الدهر . حتى كشف مهمات مهماته ورشف شفاه مشـافهاته. وانتجـى معـه في الاراء والارائب . وانتجع لربه من رأيه صوب الصواب . وارتجع سر الغيب

ممن عنده علم من الكتاب . ثم استودعه الله وودعه . ودعا له الاجل الفاضل وشيعه . وبات تلك الليلة مخيما بالعرادة . محتما بالسعادة راجح السيادة . ناجح الارادة . ثم سلك في جبل يبوس الى عين الجر الى الدلهمية . على البقاع . وهو مطيع امر الخالق ومتبعه والخلق تابع امره المطاع . واتى بعلبك المحروسة . وخيم بمرج عدوسه . واقام حتى امر امرها . وادر درها . وقسم لها من عدله . وعدل بها من قسمه . وحكم فيها بفضله . وأفضل عليها بحكمه . وكشف الظلم والمظالم . وصرف المكاره . وصرف المكارم . ورفع من المعالي المعالم . وأجرى رسوم الاجر والمراسم . وامر الرعاة برعاية امر الرعية . وحكم على القضاة بالحكم في كل قضية بالجهة الشرعية المرعية . ثم رحل على سمت البوة . معصوم الذبوه . مصون الكتيبة من الكبة والكبوة . ثم اوجه الى الزراعة وزرع الظفر قد توجه . وشرع النصر الصافي الشرعة من الكدر قد تنزه ، وقد كحل عتير العسكر طرف الجو الامره ،(١٩) وقد آن لعين الشمس الراقدة من الهبوة ان تعاد الهبوة وتتذبه ، وزرع من الزراعة من السمر المركوزة والبيض المهزوزة نبات الخط . وقتاد الخرط وضاق ذلك الفضاء الواسع بحط رحال الرهط .

ذكر وصول عماد الدين صاحب سنجار والاجتماع به

ووصل الخبر بان عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وصل جامع من الاداني والاقاصي ، ونزل طائعا على العاصي . وخيم على قدس (٢٠) وخيمه قد تقدس ، والدين بدنوه تأنس ، والكفر بقدومه تعكس ، وانه ينتظر قدوم السلطان والاتفاق معه ، على قهر الشرك ونصر الايمان ، فركبنا وابن ذكاء في اسفاره ، والصبح قد زحف على الليل برايات انواره ، والفجر قد فجر انهاره نهاره ، وسرنا بصدق النزاع ، وقصد الاجتماع ، فلقيناه قد ركب مستقبلا ، وقرب مقبلا ، ولما رآه السلطان حياه ، ولقيه بالكرامة واكرم ملقاه ، ونزلا

فتعانقا ثم ركبا وتوافقا وتساوقا ، وخيمنا بقرب مخيمه ، وجثمنا وحططنا هناك رجالنا ، وخلطنا برجاله رجالنا ، وتساعد الجندان ، وسعد الجدان. وجد السعدان ، وانتظم الجمعان ، واجتمع النظمان واتحدت الكم ، وأتأدت الهم ، وسأل السلطان ان يوازره ويزوره ، ويحضره بحضوره حبوره ، فساق معه الى سرادقه وارتفع في صدره . ورفع من قدره . وصار العسكران مختطلين . وجلسا مذبسطين . ووقف الامراء والعظماء سماطين كالسمطين . وقرأ القراء واورد الشعراء . وتجاذب بينهم اطراف الطرف والاداب الفضلاء والعلماء . وكان مع عماد الدين شاعره السنجاري ابن الهائم . ومن عادته ايراد المدائح في مثل تلك المواسم . فأنشد مدحا . ونشد منحا ثم بسط السماط . وسمط البساط . ومدت الموائد . وعادت العوائد ونضد الخوان . وكونت الالوان . ولونت الالوان . وصفت الجفان . واحضر الطهاة من كل حاجة وباجه . وخروف ودجاجة . وحلو حامت (٢١) وحامز وحامض . وتفه (٢٢) وقابض . ومطبوخ ومشوي . ومصنوع ومقلي . ماطاب مذاق مذقه ومحضه . وطالت الايدي في بسطه وقبضه . فلما رفع من ناديه القرى . وفرع بأياديه الذرى . قدم ماأعده للهدايا . والتحف السنايا . من الجياد المقربة . والثياب المذهبة . والعدد المعجبة . والاسلحة المذربة . وكل مايروق ويروع . ويضيء ويضوع . ثم انفض النادي عن ندي منفض . وسدي لبكر الشكر مفتض . وعين السلطان يوما لحضور عماد الدين عنده . وانه يستضيف فيه خواصه وامرائه وجنده . فوسع سرادقه . ووشع نمارقة . وضرب بيت الخشب له لحسب بيته . واسميت الحسنى بحسن سمته وسمته . واحتفل بحفله . واجل لاجله . وارجت ارجاء النادى بالند . وراق مد الذواظر الذواضر في ذلك الرواق الممتد . وبسط على البسط ماحضر من الياسمين والورد . وفاح الذشر . ولاح البشر ، وفرش الثرى . وشرف البرى . ورفع الحجاب . واشرعت القباب . وتوجهت الاسباب . وتنزهت الالباب . وتضوعت ذوافح الذوافج . ووضحت مناهج المباهج . ووضعت المطارح والمساند . والاسرة والوسائد . وجاء عماد الدين في خواصه وامرائه وصحبه . فتلقاه

السلطان برحبه . وقرب له السرير وسر بقربه . واجلسه الى جنبه . وحباه بحبه . واقبل عليه بوجهه وقلبه . وجلس من جرى بالجلوس رسمه . وسما في الرؤوس اسمه . ووقف الامراء والحجاب . والعظماء والاصحاب . على مراتبهم في مواقفهم . ودب الاعتزاز في معاطفهم . وكان النادى مهيبا . والندي مجيبا . والذرا رحيبا . والقرى قريبا . والظل ممدودا . والفضل موروداً . والحفل حافلا . والشمل شاملا . والبساط مقبلا . والنشاط مقبلا . والمرئي عاليا . والمسموع مطربا . والمجموع مغربا . والمنظر والمخبر جليلا جميلا . والمطلع والمطلب منيرا منيلا . والمكان عليا . والزمان جليا . والربيع في انتهائه . والصنيع في اشتهائه . والمصيف في ابتدائه . والمضيف في انتدائه والنعيم في نضرته . والاريب في اربه . والطروب في طربه . والضريب من الخلق الحسن في ضربه . وكانت ايام المشمش وقد وصلت من دمشق احمالها . وحلت في تلك الحالة حالها . وأقدم الجذل قدومها . وطلعت في ابراج الاطباق نجومها . كأنها كرات من التبر مصوغة . أو باورس مصبوغة . صفر كأنها ثمار الرايات الناصرية حلاوذوقا . واحل شوقا . ولو نظم جوهره لكان طوقا . وهو احلى من السكر . واعبق من العبير . واحسن هيأة من النارنج الأحمر . واليمون المركب المدور . وقد زفت عروسه في الثوب المعصفر . والخمار المزعفر . كأنما خرط من الصندل . وخلط بالمندل . وجمد من الثلج والعسل . فهو الذي يضرب بضربه مثل الثمل . ويقضب من قضبه لقب القبل . ونظر منه ما نضر . وما حظر ما حضر . ورئي هناك لقطوفه قطاف . ولطوافيره طواف . ولعقوده مصارف . ولذقوده صيارف . فكأنها وجوه العشاق اكتست اصفرارا . أو جمرات تشتعل نارا وتبدي شرارا . وقد اعاد لجينها صواغ القدرة الالهية نضارا . بل هي احداق الحدائق . وقلوب البوارق . ووجنات الجنات صبغها بلونه البرق . وصفرها من خوفه الرعد ودورها بوقده الودق . لابل اصفرت من مهابة الجنات الجناه . وانتظمت من جواهر الحيا الحياة . واضطرمت لهاها شوقا الى فتح اللهاة . ثم صرفت

الاطباق . ونظفت الآفاق وبسط المكان . وسمط الخوان . ونبهت اجفان الجفان للقدور الرقود . وشبهت المراجل لغليانها بصدور ذوي الحقود . وتزيد مقال المقالي الذشاشة . وتزينت مقار المقاري بالبشاشة . ومادت اعطاف الموائد بالالطاف . وتهادت اكناف السرادق بموشي الافواف . وهناك المسموط والمسلوخ . والمخطوب المطبوخ . والمقلو المقلوب . والمحبو المحبوب . والاغنية واللحمان .والاشوية والحملان . والالبان والالوان . والجوابي والروابي . والصواني والاواني . وقد صفت البوارد . وصفت الموارد . وتذوقت الطهاة . وتنوعت المشهاة . وحلت الاطعمة . وعلت الاسئمة . وجاش جاش الجاشنكير الرابط . وعاش اخوان الخوانسلار الفابط . وتداولوا وتناولوا الذوالات والحوالات . والحلاوات والحالات . وكان يوما مشهودا . وحوضا موردا . وروضا معهودا . ورواقا ممدودا ورواء مودودا . وجمعا مسعودا . وصنعا محمودا . ولما فرغت الموائد . وبلغت المقاصد . أحضر السلطان لعماد الدين هداياه . وحياه بأحسن من تحاياه . من خيل صفون . وحصن كحصون . وعراب جياد من طوائف الطريفيات . وسوابق سوابح من العتاق الاعوجيات . والمذاكي المذسوبات . من كل مطهم مطهر الخيم . وكريم من نسل الكريم . وصافن صافي الاديم . ومعرب مقرب . ومجنب مكرب . وسكب مشذب . وفيض سلهب . وبحر جموم . وطرف لهموم . وسرحوب شيظم . ويعبوب صلدم . واجرد قؤود . وضامر قيدود . وأقب نهد . وجواد ورد . ومسح رفل طمر . واشق امق غمر . ومفرع طموح . وعتيق غير جموح . وهيكل عال . وعنجوج نيال . فاختار منها كل طرف . قد حط من قدره اذا قوم بألف . من كل اشهب قرطاسي . واشعل سوسني . واغر صنابي . وادهم غيهبي . واحم احوى . واشقر مدمى . وابرش مدبر . وكميت مضمر . واخضر وادبس . وسمند اغبس . ثم احضر له ما يناسبها من التحف اللائقة . والطرف الرائقة . والعدد الرائعة . والاسلحة المانعة والسابريات السابغات والدروع والزرديات . والرؤوس والرانات . والخوذ

والترائك . والبواتر البواتك . والدلاص الموضونه . والنصال المسنونة . ومن المستعملات المصرية الذهبية والحريرية . والملحم والدبيقي . والمصمت والمغربي والعراقي . ومن نسج تونة وتنيس . كل ثمين ونفيس . وما شاكله من انواع الطيب . على النمط والترتيب . ثم انصرف وعرف حمده متضوع . وعرف جده متنوع . وشدو شكره وعطف فخره مترنم مترنح . وامره متحبر متربح . ووده مترح متدرجح . ودعاؤه صالح . وثناؤه صادح . ولسانه داع . وجنانه واع . وعهده راع . وسعده ساع . وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس . والتناجي بما في النفوس ، والتدبر فيما يقدم ويؤخر . ويقرب ويقرر . ويورد ويصدر . وتكررت المشاورة في الموضع الذي يبتدأ بقصده . ويوفي العزم فيها الجهاد حق جهده . واتفقوا على عرقا وعرقها وعقرها . والنزول بعقرها . وانها اذا ملكت ملكت طرابلس . واسفر عن صبح فتحها الغلس . واقام العسكر اياما على قدس . وبقبس النصر قد تأنس . ولسناء الظفر قد توجس . واتي العرب . وواتي الارب . واجتمعت الجيوش وجاشت الجموع . وآن لليل العزم المدلج من صبح النجح الطلوع . ونبعت الفيوض من النعيم وفاض الينبوع . واينعت ثمار المبار وطابت الينوع . ثم رحلنا اول شهر ربيع الآخر الى البقيعة تحت حصن الاكراد وخيمنا على الربا والوهاد . وصوبنا الى الجهاد هوادي الجياد . وادنينا قطاف الطاف الله لاجتناء الاجناد . وكانت الاعشاب بالشعاب واصية . والشوائب من المشارب قاصية . والقضب للقرب في طاعة الله عاصية . وطار الرعب . وثار العجم والعرب . وخاف الكفر . وطاف الذعر . وقال نفر الشرك نفر . ولاتستقر . وتشوروا وتشاوروا . وحاوروا وتحاوروا . كأنهم في قبور حصونهم اموات . لا ترتفع لهم من الوهل والوله اصوات . واجمعنا على دخول بلد الساحل على التجريد للتجريب . وجوس خلال البعيد والقريب . ثم تجرد العسكر عن الاثقال . وتجرأ على اخذ اهبة القتال . وسار السلطان ومعه عماد الدين زنكي . وسيفه بصقاله يضحك وبدم الكفر

يبكي . ومظفر الدين كوكبوري . وهـو الذي حين يوارى صـارمه المشهور في نجيع العدى لزنذ الظفر يوري . وصـحبه مـن فـرسان العرب كل فارس معـرب . ومـن شـجعان الاكراد كل فـاتك محرب . ومن فتاك الاتراك كل قسور قاسر . ومن صيد الصناديد كل كسروي كاسر . وكل كمي كميش . واكديش على اكديش . وقارح على قارح . وخضم على سابح . وجـري جـار جـارح . وبهمـة وبطل . وجبل على جبل . وفحل على فحل . وذمر نكل وورد على ورد ومرد على جرد . وحلس وحلبس . وباشر بالموت معبس . واهيس اليس . واحمى احمس . وغشمشم همام . وايهم مقدام . وبـاسل ذي باس . وعاسل عاس . ورئبـال على رئبـال . ومشـتمل على شكال . وبحر على بحـر . وصـقر على صـقر . وركبـوا سلاهبهم . وجذبوا جنائبهم . وجروا على الساحل سيولا . وجروا بالذوابل نيولا . وطـار ابليس طـرابلس بخـوافي الخـوف . ودام الجوى في رعب اهلها بدم الجـوف . ومـا سار الا مـن خـف في نهضته . ونهض بخفته . واحس حصن الاكراد بالاكدار . وصـفت على صافيتا بوارق البوار . وقطع عرق عرقا وعقـرت . وتعـرمت العريمة وتعرقت . ومـزعت تلك الاعمـال ومـزقت . وارهقـت وازهقت . ونفرت انفارها . وبقـرت ابقـارها . وملئت بـالدوائر ديارها . وسيقت مـواشيها . وحشـيت بـالنيران اوسـاطها وحواشيها . ونزل السلطان على حصـن يحمـور فمـا قـدروا يحمونه . وابتذل مصـونه واسـتخرج مـكذونه . وفتحـه ومتحه . ومساه بالدمار وصبحه . واقـام في تلك الديار عشرة ايام يجوسها ويدوسها . وقد حيزت له نفائسها ونفـوسها . ثـم رحـل بمغنمـه . وقفـل الى مخيمـه . وعاد العسـكر مسرورا منصورا . محبورا مـوفورا . قـد اطلع مـن تلك البـلاد على العورات . و اضطلع بالغنائم في تلك الغارات . ونكا منها في الاعمار والعمارات . وانقضى شهر ربيع الآخر وذلك المرج يمـوج بـالعساكر موج البحر الزاخر . وقـد وصـل قـاضي جبلة يحـث على قصـدها . ويحض على انجـاز وعدهـا . ويحـرض على اعذاب وردها . ويحقق ان الظفر في هذه السنة يبتدىء من عندها . ويقـول

ان الاشتغال بطرابلس مع احترازها واحترراسها . وكثرة ناسها . وتدرعها بلباس باسها . واستعدادها الحصار . وتجنبها عن الاصحار . يذهب الزمان . ويفوت الامكان . وهذه جبلة وما وراءها من المعاقل . قنيصة الحابل . وفرصة للمتناول . ولهنة للآكل . ونغبة الناهل . وامنية للعاقل . لم يفترع عذرة امنها ذعر . ولم يفتأ سورة دفعها ضر . ولم يقرع باب يسرها عسر . فان سلكنا سبيلها . ملكنا سلسبيلها . وان جزنا ساحتها . حزنا راحتها . وان استقدنا ملكها ملكنا قيادها . وان اعتدنا حواءها حوينا عتادها . وان افتتحنا بها فتحناها والمسلمون بجبلة مجبولون على التسليم . مؤملون ان يتبدل شقاؤهم منكم بالنعيم . فعرفناه بصحة نصحه . ورفعناه بحجة نجحه . واصغى السلطان الى قوله . واصغى له ورد طوله . واقبل عليه وقبله . واجزل له العطاء واكمله . وكان قد وصل له مقدمو جبل بهرا . فوفر لهم رواتبهم واجرى . وخلع عليهم وشرفهم . واسعدهم بالمواهب واسعفهم . فندبوا الى اتباعهم . وكتبوا الى اشياعهم . واجمع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر الجحافل . ورحل يوم الجمعة رابع جمادى الأول . حافل الجحفل سامي القسطل . ماضي المنصل . فسرنا في آجام مؤتشبه . وآكام معشبه وحزن وسهول . وشعاب وتلول . ومعالم ومجاهل . ورواب وهواجل . ومغايض وغياض . وارتفاع وانخفاض . حتى خرجنا الى ساحة الساحل . ونزلنا بها ومبارك مبارنا مواحي رسوم تلك النواحي المواحل . ومعنا احمال واوساق . واثقال واسواق . وازواد وامداد وعدد واعداد . والخيل عرمرم . والسيل عرم . والمجر لجب . والغيل اشب . والاسد في عريس من الاسل العراص . والفوارس الصلاد في غدران من السوابغ الدلاص . وقد نشأ العجاج كعجاج الذشاص . فانحلت بحلولنا معاقد المعاقل . واعتلت باستيلاء فحولنا عقائد العقائل . وحلت لخطبه سيوفنا كرائم الحوالي والعواطل . ونحن في استباحة واستباء . واصطلام واصطلاء . وارتياد وارتياء . وفتك باعداء . وسفك لدماء . وبتك لرقاب ذوي الفجور ، وهتك لحجاب

ذوات الخدور ، ننال من العدو كل نيل وتدبير عليه في داره دائرة كل ويل • فما نقطع الا واديا يغيظ الكفار ، ولانحضر الا ناديا نزيدهم به الدمار ، وسرنا الساحل الساحل ، في ثلاث مراحل ، حتى وصلنا الى أنطرطوس يوم الأحد سادس الشهر ، فاحدقنا بها من البحر الى البحر ، وزحف اليها الناس ، وحفز عليها الباس ، وخاب رجاء رجالها وخب نحوها الياس ، وقابلتنا ساعة ، فلم يجد اهلها للدفاع استطاعة ، وودخلت من جوانبها وتخللت من مذاهبها واصابتها نوائبها ، ونابتها مصائبها، وفل غريبها وجب غلالها ، وسبي من أخذ من نسائها وأطفالها ، واعتصم من نجا ببرجين اعتصما بالامتناع ، وهما هناك من أحكم القلاع ، وفي أحدهما الداوية جمرة الكفر ، ومعهم مقدمهم الذي اطلق من الأسر ، وفي البرج الآخر المنهزمون الناجون ، والفارون اليه اللاجون ، فنزل على هذا البرج مظفر الدين بن زين الدين ، فأبدى لمن استتر فيه وجه التأمين ، وحركهم الى الخروج بالتسكين ووثقوا بأمانه ، وأمنوا بميثاقه • ومكن كل منهم لسلامته من تسلم مكانه ، فلما ظفر مظفر الدين بالبرج هدمه وهده ، وحل من احكامه ما الكفر شده ، وركب الذقب على ركنه العالي ، ونكبه في ذلك اليوم بما تنكبت عنه نواكب الليالي ، وخرب الى اساسه سوره ، ورمي الى البحر صخوره ، وامتنع برج الداوية بدائها الدوي • واتبع مردتهم في التمرد هوى طاغوتهم الغوي ، وأقام العسكر حتى نقض اسوار انطرطوس وقوضها . وربضنا بها الى أن عفينا ربضها . ولما امتنع البرج تركناه ، وماكانت فيه فرصه لو ادركناه ، وكيف كنا نشتغل بفتح برج عن البلاد ، والفرص أوقات هي لها بالمرصاد ، ومن يسلك الجدد اللاحب لايعرج على بنيات الطرق ، ولايستغني مدلج الليل بالدراري عن الفلق ، ورحلنا عنها رابع عشر الشهر ، شاهرين على الأعداء سيوف القهر ، ونزلنا على مرقية وقد خلت من أهلها وتخلت • وتشعثت عمارتها واختلت ، وكان جوازنا الى جبلة على الساحل تحت حصن المرقب ، وهو معقل للاسبتارية عالي المذكب ، سامي المرقى والمرقب ، ضيق المذهب عسر المطلب ، فلم

يكن بد من عبور ذلك المضيق ، وسلوك تلك الطريق ، وقد صفت الفرنج في البحر المراكب ، وسدوا المذاهب ، وردوا الراجل والراكب ، وفوقوا الجرخ للجرح ، وسددوا الزنبورك للقرح والطرح ، فعسر العبور ، وكثر العثور ، وامتنع الجواز ، ووجب الاحتراز ، وأعوز الظهور وظهر الأعواز ، وذلك ان صاحب صقلية ، رام ان يكشف عن الفرنج البلية ، فجهز اسطولا بجهازه مستطيلا ، وحمله من عدد القتال وعدد الرجال عبئا ثقيلا ، واتفق وصوله في تلك الأيام في ستين قطعة ، تحسب كل واحدة منها قلعة أو تلعة ، من كل شيني من شأنه شن الغارة ومن عادته العادية تشعيث العمارة ، مع طاغية يقال له المرغريط • قد عرف منه التوريط ، من أرجس الطواغيت ، وانجس العفاريت فوصل الى طرابلس بطوله واسطوله ، وصوله وصوله ، فما أحلى ولاأمر • ولانفع ولاضر ، ولا استقل ولا استقر ، ولانقض ولاأمر بل صار على الفرنج وبالا ، واحدث لهم بما يسومهم من مؤونته امحالا ، وماخفف عنهم بل زادهم على الثقل اثقالا ، ووجد الكفر في اوان توانيه فلم ينتفع ولم يرتفع شان شوانيه ، وصار الى صور ثم رجع الى طرابلس وتردد في البحر وتلدد وأبلس ، وتفرقت جماعته ، وتجبنت شجاعته ، واضطرب في البحر اشهرا ، ولايظهر له رأي ولايرى له مظهرا ، فتقطت اقطاعه • وتتابعت في الفرار اتباعه ، حتى عاد في عدة يسيرة ، وشدة عسيرة ، وكان هذا الطاغية قد حضر يوم عبورنا تحت المرقب بمراكبه ، مصفوفة في البحر من جوانبه ، قد ضيق الطريق ، ولم يطرق المضيق ، فأمر السلطان بحمل الجفاتي الى هناك وتصفيفها ، والستائر وتأليفها ، والتراس وترصيفها ، واقعد من ورائها على مقابلة سفن القوم وازائها ، الكماة النخية • والرماة الجرخية ، حتى تباعدت تلك السفن ، ودب اليها الوهن ، وتمت عليها المحن ، وأنحت الأحن ، ورحل العسكر فعبر آمنا وأمن عابرا ، وسار ظاهرا وظهر سائرا ، وجزنا على مدينة يقال لها بلنياس ، وقد أجفل عنها الناس ، ونزلنا في ارضها ، وخيمنا في طولها وعرضها ، وأنسنا بنهرها وزهرها في الأرواء والرواء ، وحبسنا على نواضر رياضها

ذواظر الارتضاء ، وبتنا ونفحات النادي مريضة ، وجذبات الوادي مريضة ، والنسيم العليل بليل ، والعزم الصحيح دليل ، ورسم العدو محيل ، ولقدح الفوز من تأييد الله لنا مجيل ، واصبحنا على الرحيل مبكرين ،(فساء صباح المنذرين) ،(الصافات ١٧٧) وسرنا وسرنا في سرور ، وسفرنا في سفور وجمعنا في اجتماع ، وجدنا في ارتفاع ، ونهجنا في اتساع ، وركننا في امتناع ، وعارضنا نهر عريض عميق ، مافيه طريق ، وهو مطرد من الجبل الى البحر ، فازدحم العسكر عند ذلك النهر ، وتواقعت الأحمال والأثقال عند العبر ، وليس عليه الا قنطرة واحدة فتصادموا على ذلك الجسر ، وسار السلطان من فوق على سفح الجبل وعبر ، واستتبع من عسكره بعد الزمر والزمر ، ونزل عشية الخميس على بلده • وعانت الأثقال في تخلصها من الشدة الشدة ، وتكامل نزولها حين انتصف الليل ، ووصل الى القرار السيل ، وهذه بلدة كاسمها بلدة على شاطىء هذا النهر ، وساحل البحر ، حصينة البناء ، مصونة الفناء قد حصنها الاسبتار ، وحسنها الاستظهار وقطعوا عنها سلوك الطرق ، بتعميق ذلك النهر المخترق ، وألفينا بلدة خاوية على العروش • خالية من الأنس والأنس ،(وكأن لم تغن بالأمس) (يونس ٢٤)، وقد انزعج اهلها ، وتشتت شملها ، وتخوف آمنوها وعدم السكون ساكنوها .

ذكر فتح جبلة

وأشرفنا على جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر ، وقد اشتهر موسم النصر ، واشتد على الكفر رهق القهر ، وكان قاضي جبلة قد تقدم في السابقة وسبق في المقدمة ، وأقدم على قصدها بالعزيمة المصممة ، فلما بصر مسلمو البلد بما وضح في الجد من الجدد وسنح من الظفر المتضافر المدد ، خرجوا مستسلمين مسلمين مستمسكين

بعز الاسلام معتصمين ، وعلت على السور الرايات الناصرية المنصورة ، والتهجت بحمد الله الألسن الشاكرة وابتهجت القلوب المحبورة ، وتحصن الكفرة من الحين ، ولجأوا في التحين الى الحصين ، فمن لاذ بالحصن الذي على المينا ، قال انه بحصانته ومنعته يحمينا ، وعاذ معظمهم الأكثر بحصن البلد وهو المعقل الأكبر ، وتوسط لهم قاضي جبلة في أخذ الأمان بعد قبض الرهائن ، على ان يعيدوا من استرهذوه ، في انطاكية من أهله ، ويجمعوا شملهم بشمله ويسلموا الينا كل مالهم من سلاح وعده ، وخيل وذخيرة وغلة ، وتسلمنا الحصين يوم الخميس ، وعادوا مأهولين من الاسلام بالأنس ، وكرمت بالكرام جبلة جبلة ، ونفت عنها بالفئة المقبلة ، الفئة الشقية المختبلة ، وسعد أهلها بعد الشقاء وتعوضوا من الشدة بالرخاء ، وافضى اليأس بهم الى الرجاء ، وفاؤوا الى الوفاء ، وانتقل أهل الجبل الى جبلة طائعين بعد العصيان ، مصافحين بالمصافاة بالايمان أيمان أهل الايمان ، وكان حصن بكسرائيل قد تسلم من قبل ، واتصل بفتحه الحبل ، فرتب فيه من حكم على ذلك الجانب وأهله وكانوا لقاضي جبلة مذعنين بايمانه مؤمنين ولدعائه ملبين ، ولبقائه محيين ، ونجوا من العار والتبار ، وضيم الكفار ، وتناجوا بالاستبصار والاستغفار والاستذفار ، وآضت تلك الولاية لاحسانها والية ، وتلك الناحية على سكانها حانية ، وتلك المدينة لأهل الدين دائنة دانية ، وتلك الجنة العذبة الجني لورد دم الجناة من شوك القنا جانية ، وتلك البنية لمعالم المعالي في هدم اساس الاساءة بانية ، وتلك الهضبة راسية ، والتربة كاسية والرتبة سامية ، والربوة رابية والذروة عالية ، والحالة حالية ، واقام السلطان بها اياما حتى أزال شعثها ، وأزاع خبثها ، ورأب صدعها ورب ربعها ، وشاد ركنها ، وشد حصنها ، حتى أزال كفرها ، وجبر كسرها ، وجد بها جدبها ، وحض بها خصبها ، وبالعدل عمرها ، وبالفضل غمرها ، وبالرعاية ملأها

والرعية كلاها ، وبجل قاضي جبلة وشرفه • وحبس عليه ملكا نفيسا ووقفة ، وصرفه في املاك آبائه ، وحكمه في ولاية حكمه وقضائه .

ذكر فتح اللاذقية

ورحل ثالث عشري الشهر يوم الأربعاء منشور اللواء ، منصور الأولياء • مشكور المضاد ، عالي القدر قادر العلاء ، ناجح الآراب راجح الآراء ، وسار برعب الى العدو يقدمه • وعزم على الغزو يصممه ، وأمر لأمرار الأحكام يحكمه ، وجد على تدبير الدين يقفة ، وحد في تدمير المارين يرهفة ، وسعادة تؤيده وتأييد من الله يسعده ، وسطوة على الكفار يرسلها ، وجذوة في أهل النار يشعلها ، وجيش للوثبات ينشطه ، وجاش بالثبات يربطة ، وهيبة تروع الخواطر ، وهيأة تروق النواظر ، وبتنا تلك الليلة بالقرب من اللاذقية معرسين ، وبات الكفرة مبلسين ، قد لاذوا من حصن اللاذقية بجبل عاصم • وعروة كل قلب لهم من الرعب في يد فاصم ، والخوف عليهم مستول • والذعر فيهم مستعل • والأفئدة منهم خافقة والانية بهم متضايقة ، والمهج في سوق الردى نافقة ، ونحن طول الليل من السوابغ في جر الذيل ، ومن السوابق في اجراء الخيل ، ومن نشاط العزم في اهتزاز ، ومن احتياط الحزم في احتزاز ، ومن انتخاب الأجواء والجياد في انتخاء ، ومن انتقاد العتاق والرقاق في انتقاء ، ومن انتهاض الرياح بالهواضيب في انتهاء ، ومن اقتضاب الأرواح بالقواضيب في اقتضاء ، والمقربات تسرج والسريجيات تقرب ، والمقانب تكتب والكتائب تقنب والصوارم تنتضى • والصرائم تقتضى ، والقوارح تضمر ، والقرائح تخمر ، والضوامر تجرى • والبواتر تعرى ، والصلاد تلجم • والدلاص تستلأم • والحنايا توتر • والمنايا تؤثر • والجاليشية تعبي ، والجاوشية تلبي .

حتى أصبحنا يوم الخميس والخميس مصبح . والمتجر مربح .

والمفخر متوضح . وللجاش فرح . وللجيش مرح . وقرح العدو مقترح . وزند الفتح مقتدح • وباب السماء لنزول ملائكة النصر مفتتح . وأحدقنا بالقلاع وقلعنا الاحداق . وخطنا بابر السهام من موقها آماق . وأخرجنا منهم بالارهاق الارماق . وانهضنا اليها الحجار والذقاب والزراق . وأطرنا الذشاب الى أوكار المقل . وأزرناهم رسل النصال بكتاب الاجل . وسمعنا من ضوضائهم زجل الوجل . ورأيناهم تغلي من صدورهم بنار الحقود مراجل الغلل . وأشرفوا من الشراريف قلقين متقلقلين مابين تلك القلل . وجدوا في القتال . وشدوا على الرجال . وسدوا مذاهب الاهواء بالاهوال . وهناك في الزنبورك بورك . فانه بالجرخ دورك . وقلنا للكفر اخرج لندخل الى دورك . وأي دار فيها التوحيد بأهل الشرك شورك . وطالما سكنت دارنا فاخرج . ودرجت اليها فادرج . ومازلنا نقاتلهم بسوادنا بياض النهار . ونغطي سني يومنا بليل الغبار . ونرفع من السور حجابه بالحجار . حتى فزنا بتمكن الذقاب والحجار . وأخذت عليهم الذقوب . ووقذت منهم القلوب . وبلغ الذقب من الشمال في الطول ستين ذراعا . واربعة أذرع في العرض اتساعا . وهي ثلاث قلاع متلاصقات . على طول التل متناسقات . كأنهن على رأس رأس راسخ . وذروة أشم شامخ . فسهل الله لنا فرعها . وشرعنا نستاصل أصلها وفرعها . وناوبنا عليه القتال . وجاوبنا بالنصال النصال . وأوضعت بنات الكنائن بظعائن الضغائن . وأثارت من مكامن الاحقاد كوامن الدفائن • ودام الرماء • ومريت الدماء • وانتجع النجيع • ووقع ذلك الرفيع • فاستبطيء السريع . وتخطي الصريع . وأبصروا مالا عهد لهم بمثله . وعاينوا ماعاذوه من غريم الموت المطل في مطله • ونتح الحتف بابه . وحفز الزحف اصحابه . وكثر الشرك نابه . وصادف الكفر لدمه المطلول مصبه ومصابه . ونفر الناس اليهم • واستطالوا عليهم وطمعوا فيهم . والاجل يظهرهم والوجل يخفيهم . وهم من وراء أسوارهم • بواء في بوارهم . ووبل الذبل هام . وأهل الجهد في ضراب وضرام . وجمر الجمع في التهاب والتهام . ووقع منهم الزمع • ومنافيهم الطمع . حتى ازدحم على التل الصغار والكبار . واستشعرا منا

وزال منا الاستشعار . وكان لي مملوك صغير قد زحف . وأرهق وارهف فقبل خده سهم . فرجع واذا وجهه طلق لاجهم • وهو بقرحه فرح . وللفرح بالشهادة مقترح . وقد عدله الجرح • وحسنه القبح • فلما عرفوا أنهم مدركون . وأنهم يؤخذون ولايتركون . صاحوا الامان . واستماحوا الايمان . وذلك في يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الأولى عشية . وكان فتح ذلك المعقل من الله مشيه . فانه موضع ما فيه مطمع • ولم يكن للكفر غيره مفزع • وصعد اليهم قاضي جبلة يوم السبت غدوه . وكان ذلك الفتح صلحا أشبه عذوه • وطلع السنجق المنصور . وانجلت الظلمة وتجلى النور . وأشرق الفلق وزهق الديجور . وبدا الفجر وباد الفجور • وسرت القلوب وأقبل السرور . وسلموا القلاع بما فيها من عدة وذخيرة . وأسلحة وخيل ودواب كثيرة . وأمنوا على أنفسهم وأموالهم • وانصرفوا بنسائهم ورجالهم . وذريتهم وأطفالهم . وخفوا من أثقالهم . ودخل جماعة منهم في عقد الذمة . وتمسكوا بحبل العصمة . وانتقل الباقون الى انطاكية . وايقنوا انهم وجدوا بعد رسوم السلامة العافية العافية . ورتب السلطان جماعة من خواص مماليكه • وأخرج من القلاع أهل الكفر وأسكنها التوحيد مصونا من الاشراك وتشريكه • ثم ولى بها سنقر الخلاطي مملوكه • وقد عرف حسن سيرته وأحمد سلوكه • فتولى الرعية كافة بالرعاية والكفاية • وانتهى الى غاية في نهى أولى الغواية • واقام جاليا للغاية • عالي الرأي والراية • وركب السلطان الى البلد وطافه • وهز إلى إحسانه أعطافه • وأدنى الى عدله قطافه • ووفر الطافه • وأصفى نطافه • وامنه بعد ماأخافه • ورأيتها بلدة واسعة الافنية • جامعة الابنية • متناسبة المعاني . متناسقة المغاني . قريبة المجاني • رحيبة المواني . في كل دار بستان . وفي كل قطر بنيان . وقد أبى الله أن يكون للكفرة منها جنان . أمكنتها مخرمة . واروقتها مرخمة . وعقودها محكمة . ومعالمها معلمة . ودعائمها منظمة . ومساكنها مهندسة ومهندمة . وأماكنها ممكنة . ومحاسنها مبينة . ومراتبها معينة . وسقوفها عالية • وقطوفها دانية . وأسواقها فضية . وآفاقها مضية . ومطالعها مشرقة .

ومرابعها مونقة . وأرجاؤها فسيحة . واهـواءها صـحيحة . لكن العسكر شعث عمارتها • وأذهب نضـارتها • وأزعج سـاكنيها . وأخرج قاطنيها . وملك دور المشركين للمـوحدين . وطهـرها مـن رجس الكفر وأظهر الدين . ووقع من عدة من الامـراء الزحـام على الرخام • ونقلوا منه أحمالا الى منازلهم بالشام . فشوهوا وجـوه الاماكن • ومحوا سني المحاسن . وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة . نفيسة قديمة . بأجزاء الاجزاع مرصعة . وبألوان الرخام مجزعة . وأجناس تصـاويرها متنوعة . وأصول تمـاثيلها متفـرعة وهـي متوازية الزوايا . متوازنة البنايا . قد تخيرت بها أشباح الاشباه . وصورت فيها أمواج الامواه . وزينت الاخـوان الشـيطان . وعينت لعبدة الصلبان . ولما دخلها الناس اخـرجوا رخـامها . وشـوهوا أعلامها . وحسروا لثامها . وكسروا أجرامها . وأهدوا الاسى لهـد أساسها . وأفاضوا عليها لباس ابـلاسها . وحـكموا بعـد الغنى بافلاسها . وافتقرت وأفقرت . وخـربت وتـربت . ثـم لما طـابت النفوس . وتجلى عن البلد بفتحه البوس . عاد الى هـذه الكنيسة بالأمان القسوس وهي متشـوهة متشـعثة مسـتمسكة بأركانها وقواعدها متشبثة • ولقد كثر أسفي على تلك العمارات كيف زالت . وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت . ولكنما زاد سروري بـأنها عادت للاسلام مرابع . ولسروحـه مـراتع . ولجمـوعه مجـامع . ولشموسه مطالع . فلو بقيت بحليها وحالتها . بعد ما تبدلت رشدها من ضلالتها لشاقت وراقت . وكما أفاقت فاقت • وشأت البـلاد اذا شاءت . لكنها ساءت لما أساءت . ثم أعادها الاسـلام إلى أحسـن حاله.وجلالها في السناء أسنى جلاله . ورغب في إعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والارمن . حبا للوطن وسكونا الي السكن . فأض مأمول الجني مأهول الجناب . وعاد بتجار البحار مملوء الرحـاب . وتبدل بالابدال الاخيار . والارباب الابرار . من بعد الكفار الفجار . والاشرار أهل النار . وكانت شواني صقلية . قد قـابلت في البحـر اللاذقية . طمعا في امتناعها . وطلبا لنياده عنهـا ودفـاعها . فلمـا خابت خبت نارها . وباخ أوارها . وقصدت لجهلها اخذ مركب مـن يخرج من أهلها لكونهم شغلوا عن صـونها ببـذلها . فـامتنعوا عن

الانتقال . وأمنوا بعقد الذمة على النفس والمال . وكان السلطان يوم الرحيل من اللاذقية راكبا عند ميناها . وقد حصل من ترتيب العمارة مناها . فطلب مقدم تلك الشواني أمانه . ليصعد ويشاهد سلطانه . فأمنه حتى صعد . ولو أسلم ذلك الشقي لقلت سعد . ولما حضر الكافر عفر وكفر . وتروى ساعة وتفكر . وأحضرنا الترجمان . وأدى عنه البيان . وقال أنت سلطان عظيم وملك كريم . وملك رحيم • وقد شاع عدلك • وذاع فضلك وقهر سلطانك • وظهر احسانك • فلو مننت على هذه الطائفة الخائفة فأمنت وأفضلت عليها وأحسنت • لملكت قيادها • اذا أعدت بلادها • وصاروا لك عبيدا • واطاعوك قريبا وبعيدا • وان أبيت غير الغيرة والاباء • ودمت على ارهاق الدهماء واهراق الدماء جاء من وراء السبعة البحار من يسد فضاء السبع الطباق • وأفاق للتناصر على دفع هذا الخطب نصارى الآفاق . وثار الروم لروم الثار .. وخرج الفرنج أنفارا للاستنفار . وسار ملوك ذوي الاقانيم . من سائر الممالك والاقاليم . واتي الآتي . ولايقاوم القدر المأتي . وهؤلاء أهون منهم . فاتركهم واصفح عنهم . فقال السلطان:قد أمرنا الله بتمهيد الارض . ونحن قائمون في طاعته بالفرض . وعلينا الاجتهاد في الجهاد . وامتثال أمره فيه بالانقياد . وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد . ولاتكترث الاساد بكثرة الذقاد . ولو اجتمع اهل الارض . ذات الطول والعرض . لتوكلنا على الله في البقاء . ولم نبال بأعداد الأعداء . فلما سمع ما فهمه من نجهه . ذهب بعد أن صلب على وجهه . وركب بكربه وكر بركبه . ولم يغن خطابه عن خطبه .

ذكر فتح حصن صهيون

ورحلنا ظهر يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى . والهدى في نصره بين أنصاره يتهادى وقد تيقنا أن الفتح لايتمادى . وان العزم عن الفداء بالمهج في سبيل الله لايتفادى . وأخذنا على سمت صهيون . وهو حصن يفوق الحصون . ويفوت العيون وطلبنا كما

يطلب الدائن المديون . ونحن للكفر مميتـون . وللإسـلام محيون . وكان الطريق اليه في أودية وشعاب . ومنافذ صعاب . ومضايق غير رحاب . وأوعاث وأوعار . وأنجاد وأغوار . وقطعنا تلك الطـرق في يومين . ووصلنا ليلة الثـلاثاء بليلة الاثنين . وخيمنا على صـهيون يوم الثلاثاء التاسع والعشرين . ورزقنا الله التأييد والتمكين . وهي قلعة على ذروة جبل في مجتمع واديين . بها محيطين من جـانبين . والجانب الجبلي قد قطع بخندق عميق وسـور وثيق . والقلعـة ذات أسوار خمسة كأنها خمس هضاب . ممتلئة بذئاب سغاب • وأسـد غضاب . وأحاط العسكر بها يوم الاربعاء مـن نواحيهـا الاربـع . وهي ممتنعة علينا بالركن الامنع . والسمو الامتع . ونقل السـلطان خيمته الى جانب الجبل بـكرة اليوم . وشرع في محـاصرة القـوم . وقامت أسواق الاقواس للمذون في مغالاة السوم . وتـوفرت سـهام السهام من المقل . وتبـدت بنات الكنائن مـن الدم القـانىء حمـر الحلل . وأسقطت حوامل المنجيقات أجنة الصخور . وكشفت صدور الكنانيات أكنة الصدور . وظهر سرا لاسراء . وكثر مراء الرمـاء . وزخر دأماء الدماء • وطـارت الحجـارات . وحجـرت الطيارات . ودارت حميا الحمـام على أولئك . واسـتنجدت ملوكنا الملائك . وأدامت اليهم المجانيق والجروخ والقسي الرمي المتدارك . وأقام الملك الظاهر غازي صاحب حلب منجنيقين • ونهـج بهمـا مـن جـانب الوادي الى رديء الأعادي طريقين . وكان له في فتح هذه القلعة الجد العالي . والجد الوالي . والعزم الماضي . والحزم القاضي . والسعي الناجح . والرأي الراجح . والبأس البالغ . والسطو الدامغ . فـانه اتصل بنا قبل الوصول الى جبلة من طريق حماه . وقـد اسـتصحب الكماة الحماة . ومعـه الرجـال الحلبية . والمنجنيقية والجـرخية . والجاندارية والخراسانية فأظهر على صهيون اليد البيضاء . وكسب الذكر والثناء . وأنار في فضاء الفضائل وأضاء . ودام القتـال على المكان من جانبه . ومن جانب السلطان . والملك الظـاهر في تـظاهر ملكه . وتضافر سلكه . وريعان اقباله . وعنفوان جلاله . وشـباب رهان مجاراته . وشبا برهان مبـاراته • وابـراق عوده . واشراق سعوده . وغرة عزته• وميعه منعته • وصدر تصدره • وشرخ تأمره

وتشمره • وقد وصل في أول نشاطه • ونشوء اغتباطه • وفتاء فتوته • ورواء رويته • وارتقاء ارتفاعه • وايفاع بفاعه • وترعرع سنه • وتعرعر ركنه • وتسامي سيادته • وتراقي سعادته • واجد لعز العزم الجد • وأعد لري الرأي العد • واستلذ في سبيل الله نصبه • ورفع المنجنيق ونصبه • وجعل لرجاله ذوبا • ولأحواله رتبا • والقم أفواه كفاته حجرا • وأجرى في الحق من الحجارات الجاريات من منابعه نهرا • ورجم الحصن الزاني رجم المحصن • وأحسن الى الاسلام وأساء الى الكفر . فالله در المسيء المحسن • ومازالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمي • والحنايا بسهام المنايا تصمي • حتى قتلت مقاتلة الحصن • وهان بما دب فيه من الوهن • وأصبحنا بكرة يوم الجمعة ثاني جمادى الاخرة • وطما بحر العسكر بأمواجه الزاخرة . وازدحم الناس في الزحف كأنهم في الحشر بالساهره . وهاج الشباب . وماج العباب . وتسابق ذوو الجراة والقوة . وتلاحق ذوو الحمية والنخوة . وكان في قرنة الخندق عند خرقة الى الوادي موضع لم يكمل تعميقه . ولم يتم توثيقه . فتطرقوا من تلك القرنة الى القنة . وتسوروا السور وتسلقوا . وتقلعوا الى القلعة وتعلقوا . وتملكوا الذروة . وامسكوا العروة . واستولى على أهلها الرعب . واستشرى بهم الكرب . فتعادوا الي القلة . وتفادوا من الخوف لامن القلة . وملكت عليهم ثلاثة أسوار . بما فيها من متاع وشوار (٢٥) . ونعم وأبقار . وصاحوا الأمان • وبذلوا الاذعان . ونادوا مكذونا من السلامة وتسلموا المكان . فما امنوا على المال والنفس . حتى قررنا عليهم مثل قطيعة القدس . واغلقت دونهم الأبواب . وسير إليهم الذواب . وما استقر خروجهم حتى استخرج منهم القرار . وجبي الدرهم والدينار . وعم الكبار والصغار الصغار . وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندار ، ثم سلم حصن صهيون بجميع اعماله . وسائر ماحواه من نخائره وأمواله . الى الامير ناصر الدين مذكورس بن خمار تكين . اسد العرين وامير المجاهدين . المقدام الهمام • والمطعام • فألفى الثغر سداده بسداده . وامرع به مراد مراده .

ذكر فتح الحصون المذكورة والرحيل

وتسلم يوم السبت قلعة العيد • ويوم الاحد قلعة الجماهريين • ويوم الاثنين حصن بلاطنس وندب الى كل حصن من تسلمه . وسلكه في سلك الفتوح ونظمه .

ذكر فتح حصني بكاس والشغر

وسار السلطان ثاني يوم فتح صهيون على سمت القرشية ، ومشية الله جارية على موافقة ماله من المشية . ونزل على العاصي في طاعة الله والنصر قد نزل . والكفر قد انخذل . يوم الثلاثاء سادس الشهر . وبحور السوابح في غدران السوابغ مائجة على ذلك النهر . وحكم السلطان في القهر ماض بانن الله على الدهر . وتسلم حصن بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور ، وشكا الشرك نكاية حد بأسنا المشكور . وحول خيمة خفيفة الى الجبل ، لحصار قلعة الشغر • وهي قلة شامخة من أعلى القلل • على هضبة مذقطعة . عالية مرتفعة • ومن نواحيها واد • خاف من العمق غير باد • في أعماق ووهاد • وقد قطعت من الجبل حتى اتصل بالوادي خندقها • واخذ من العوادي موثقها • فما اليها طريق ولا عليها طروق • ولا فيها للطمع علوق • ولا السهم اليها مروق • ولا للزحف فيها مقطع • ولا للذر نحوها مطلع • ولا للطير في مراحها وكر • ولا للمكر في افتتاحها مكر • ولا للوهم في توقلها مجال • ولا للفهم من تصورها منال • ولا لها بمن يحتفل بها احتفال • وما عليها للنازلين عليها قتال ولا نزال • ولا يتغير لها مع تغير الاحوال حال • وصعب شغل الشغر • واشتغل فكر الكفر • ولم ير السلطان طريقا غير الرمي من المنجنيق • لعله ينال جميعها بالتفريق • وداومها بالحجارات أياما • ولكم سدد بها مرمى ومراما • فلم تعبأ بأعبائها • فإنها

ترامت عن رمائها • وابت الا ثباتها وثبتت على ابائها • وأعيا اعضال دائها • واستفحال بلائها • وخام الرجاء بالارجاء عن ارجائها • ولو لم يضجر حاميها لضجر راميها • وسئم سائمها لتساميها • لكنه وهي جلده • وهوى خلده وخار قلبه • وحار لبه • وخاف من الاقامة • وخاب من السلامه • وارتاح الى الراحة • وسما الى السماحة • وعاج الى الانزعاج • وعاد لداء خوفه في الاستئمان يطلب العلاج • ودعا الى الدعه • والخروج من الضيق الى السعة • فبينا نحن في ترو وتفكير • وتخير للرأي وتدبر • ونقول هذا حصر يشتد • وأمر يمتد • وعمل يصعب • وأمل يتعب • ومعقل لايختل ومعقد لايحتل • ومقصد لايدرك • ومورد لايملك • ومكان لاامكان لفتحه • ورجاء يطول الزمان في تطلب نجحه • اذ خرج من الحصن من يضرع في الأمان ويمتري ضرع الامن • فشكرنا الله على تسهيل المتوعر • وتيسير المتعسر • وتحصيل المتعذر • وتلقيح الرجاء من الياس • وتنقيح مناط حكم الصحة عند اضطراب علة القياس . وكان ذلك ثالث عشر الشهر يوم الثلاثاء • وسألوا في مهلة ثلاثة أيام والارجاء • ليخبروا صاحب انطاكية ويستأنذوا • ويقبلوا عنده العذر ويخرجوا من الحصن ويسلموه فأصبحنا يوم الجمعة وصباح الجمع مسفر وجناب الشرك مقفر والشغر شاغر . والكفر صاغروفسم القهر منا لهم فاغر . والاسلام قد ثلم ثغر من هو له مثاغر . والحصن البكر مفترع • والدين المتأصل بشعب النصر متفرع • وطلع العلم الى ذلك العلم الطالع • وانتقم الهدى الضليع من الضلال الظالع • وكأنما عذبات تلك الراية مقاول الداعين ، وكأنما أبراج تلك القلعة مسامع الواعين ، وعاد الحصن أهل بأهل الاحصان ، وصافح بأيدي الأيد ايمان ذوي الايمان . فابتسم عن النصر ثغر الثغر . وفرغ القلب من شغل الشغر ، وسلم هو وحصن بكاس ، الى غرس الدين قليج الساقي عدوه الموت بكاس الباس . وانتقل السلطان يوم السبت الى مخيمه والاقبال جاثم في مجثمه • وسرى ولده الملك الظاهر الى قلعة سرمانية ، وأرهق فيها الفجرة الجانية ، واستطلق منها البررة العانية . وقطف مجانيها الدانية ، واخلى مغانيها الغانية ، وماقطع

قرارها حتى قرر عليها قطيعه . وكلفها ما كانت له من المال مستطيعة • ولم تزل عاصية بطوعها فصارت كرها مطيعه . ثم خرج حتى خربها عاليها • وعطل حاليها • وانجلى ثاويها • وانتأى جاليها • وبقيت دمنة دائرة • ودمية عائرة . ورسما عافيا • ورقما خافيا • وربعا باليا • وصقعا خاليا • وعادت دارا دارسة • مستوحشة بعد أن كانت آنسه • وكان فتحها في يوم الجمعة الثالث والعشرين . فأخلى الله من السباع الضواري ذلك العرين . ومن نوادر ألطاف الله تيسير هذه الفتوحات الخمسة المتتالية • في أيام الجمع الخمس المتوالية • باء فيها لنصر اهل الجمعة بذل أهل السبت أهل الأحد واصبح التوحيد على التثليث قاهر الأيد . ظاهر اليد •

ذكر فتح حصن برزية

وسرنا الى قلعة برزيه • وسرنا سار • ودر الظفر لنا دار . وهي احصن القلاع وافرعها • واحسن التلاع وارفعها . واسمق الرواسي واسماها واسئم الرواسخ واسناها . وكان السلطان سبق اليها واشرف عليها . ثم استدعي الثقل واستحضر . وجمع بالفضاء تحتها العسكر . وذلك رابع عشري الشهر يوم السبت وقد تهيأت في العدو اسباب الكبوة والكبت . ثم تجرد يوم الاحد في العدد والعدد . ورقى الى الجبل . مع ابطاله النبل ، فرأيناها قلعة شماء في الذرى . لاتكاد من سموها ترى . وهي على سن من الجبل عال . مترامية في السماء ارتفاعا ،وقيل قدر علو ثلاثة فكان خمسمائة ونيفا وسبعين ذراعاء فأحدقنا بها وبالجبل . وقطعنا عنها متصلات السبل . ونصبنا عليها المجانيق في ذلك السفح . فلم تصافحها صفائحها . وأبدت لنا صفحة الصفح . فقد بعد مرام مرماها . وحارت الاوهام فيها وقلنا ماأعلاها وماأسماها. وتحاجزت عنها الحجارة فلها من اجازتها بها الاجازه . فما بلغت الى القلعة قلائعها . ولاطلعت الى التلعة طلائعها . هذا والنجم يلامع بلامعها

وتقارن طوالعه طوالعها . فكأن الصخور سلم نحورها . فإن سورتها تتكسر دون الوصول الى سورها . ولما رأى السلطان انه لا وصول الى نيقها بالمنجنيق . وان الاشتغال به يطيل زمان التعويق . مال الى الزحف . ولاحف جموعه في ذلك اللحف . وذلك في السابع والعشرين من الشهر يوم الثلاثاء . فقسم الناس ثلاثة اقسام على السواء . وجعل الذوبة الاولى لعماد الدين صاحب سنجار . الليث الهصار . والغيث المدرار . والبحر الزخار . والسيد الحلاحل (٢٦) . والملك العادل في صحابه الصباح ، كفاة الكفاح وعفاة الصفاح . ونفاة الهام . بثبات الاقدام في الاقدام . وشفاة الاوام بعلة الانتقام من الاقوام . واساة ذوي الاساءة باحسان الحسام . وكساة عرى العراء أربية القتام . ورقاة اراقم اللهاذم وسقاة حوايم الصوارم . والمزاق في حومة الردى رداء المآذق . والسباق في حلبة الهدى بهوادي السوابق . من كل شارب ماء الوريد بشفاء الشفار . وضارب هام المريد ببتار التبار . ولاسع بحمة الحمام في الاسل العاسل عاسل . ولابس لباس الباس كالاسد الباسر باسل . ومعتقد الدين للربيني معتقل . ومعتد على العدو بعادي معتدل . ومجتاب لبوس البوس على الموت العبوس مجتاز ، ومجتب لحب المنون لرهون نفائس النفوس محتاز . فانقضوا على الهضب . وعضوا على العضب . ودام الصفا يد هده . والصدى يقهقه . والزاحف يتقدم ويتقهقر . والحافز يخفى ويظهر . والرجال تتعالى . والحجار تتوالى ، والمصاعد ترقي . والمصاعب تلقى . والمضايق تولج . والبوائق تحرج . والاكام تفرع والرجام تقرع ، والصخور ترديد . والجلاميد تميد . ومازالت هذه الذوبة تنازل وتقاتل وتناضل وتطاول . وترمي وتدمي . وتصمي وتصمي . وترد وترد . وتصد وتصد . وتصدم وتصدم . وتقدم وتحجم . وتصدع وتصدع . وتحمل وتجرجع . وتذكو وتنطفىء . وتبدو وتختفي حتى كلت وملت وانحلت وتخلت . وكانت غلبت . لولا انها لغبت ، وسمت . لولا انها سئمت ، وألغيت هذه الذوبة خاصة ، لاهل الحصن حاصة ، فانهم تولوا بأجمعهم القتال . ولم يقصدوا للتناوب الاستبدال . ولما ظهرت في الذوبة النبوة ، وكاد جوادها تناله

الكبوة . تقدم السلطان بنفسه في النوبة الثانية . والسطوة الدانية . والعزمه الناوية غير الوانية وخف في الثقال من الرجال . وزحف الى الجبل بالجبال . وتضافروا فتطايروا في الاوعار كالاوعال . وجروا كالسيول في تلك المسائل . وجروا نيول السوابغ ، على تلك الهواجل . وترقوافي ذراها . وقروا على قراها ، وتلبسوا بجوانبها ، وتوجسوا من مثاعبها ، وتدرجوا في مدارجها ، وعرجوافي معارجها ، وخرجوا في مداخلها،ودخلوا في مخارجها ، وصارت الجروخ تجوزهم . والجروح لاتحوزهم . والسهام تعبرهم . والاكام تسترهم . والنخوة تحميهم . والحمية تنخيهم . وقد نشط السلطان لتسليطهم وتنشيطهم والتحذير من توريطهم وتفريطهم . فمن انقبض بسطه . ومن اعرض ضبطه . ومن أقبل أغبطه ، ومن أدبر أسخطه . ومن تقدم قرظة . ومن تقاعس أحفظه ، ومن تناعس أيقظه ، وكلما شاهدوا السلطان يشاهدهم تسلطوا . وكلما اغتبطوا بما فرعوه من تلك الفوارع ارتبطوا . فمنهم من تمكن من الطلوع . ومنهم من تكمن للولوع . وتقلبوافي تلك المخارم كالقلوب بين الضلوع . وعرا اهل الحصن العناء والعياء . وعمهم البلاء . وأدركهم الشقاء . فانهم مازالوا يقاتلون يومهم من غير مناوبة جميعا . فمنهم من صد صديعا . ومنهم من صار صريعا . وظهر فيهم الفتور . وبدا منهم القصور . وجاءت النوبة الثالثة تالية . واقدمت امدادها متوالية متعالية . وعادت النوبة الاولى لنشاطها . وزادت في انبساطها . فبلغوا وغلبوا والتهموا والتهبوا . وتعلقوا بالسور . وتسلقوا كالنسور . وطلعت القلعة . وقلعت الطلعه . وافتضت العذره . واقتضيت النصره . وأعان القدر فقدر الاعوان . ونتجت بالفتح البكر الحرب العوان . وان اهل القلعة لما ايقنوا انهم ملكوا . طلبوا الامان حتى لايهلكوا . فلما سمع اصحابنا بالامان صياحهم . وعرفوا للضراعة التياعهم والتياحهم . كفوا عنهم انتظارا لما يأمرهم به السلطان . واشفاقا من سبي من يشمله الامان ، وكان جماعة من دهاة الخواص . عارفين بطرق الاقتناص . فاظهروا ان السلطان امن اهل القلعة . وانه يدافع عنهم في هذه الدفعة . وجمعوهم في مواضع وكنائس .

واحرزوا النفوس والذفائس . وعاد عنهم من حضرهم . على ظن ان السلطان امنهم وحظرهم . وبقي اولئك الافراد بهم متفردين . ولتجريدهم للسبي متجردين . وصار مابالقلعة ومن فيها لهم كسبا وسبيا . ومارأوا لحق من شاركهم في السعي رعيا . وحرموا ماارتفقوا به وحرموا الرفقاء . وحازوا دون الغانمين النهب والسباء . وملك واحد مائة وحاز الري وحلا عنه رفقة ظمئة . ولما تسنى ذلك الفتح وتهنا . وتسهل ذلك الصعب وتهيأ . عاد السلطان الى خيامه . وعاذت الايامن بأيامه وكانت صاحبة حصن برزية اخت زوجة الابرنس صاحبة انطاكية وقد سبيت وخبئت فما زال يطلبها حتى أظهروها وأحضروها . وكانوا بعد هتك سترها ستروها . فمن عليها بالاعتاق من الارقاق . وحل عنها وعن زوجها قيد الوثاق . وأحضر أيضا ابنة لهما وزوجها وعدة من أصحابهم وأدخلهم معهم في الاطلاق . وجمع شملهم بعد الشتات . ووصل حبلهم بعد البتات . وشعبهم وقد تصدعوا . واشبعهم وقد تجوعوا . وحظرهم وقد استحلوا وكثرهم وقد استقلوا ، وحرمهم وقد استبيحوا . ومنعهم وقد استميحوا . وأحياهم بعدما هلكوا ، وعصمهم بعد ماهتكوا . وحواهم وأغناهم وقد افترقوا وافتقروا . وجبرهم ونعشهم وقد انكسروا وعثروا . وسير معهم إلى أنطاكية من أوفدهم على ستها . فسرت باختها . واعلنت بمقتها من سر مقتها . واذاعت من مضمر بغضها بمظهر حبها . وجاءها الفرح في غمها والفرج في كربها . وتشكت لأخذ بلدها . وتشكرت لترك أختها وولدها ، وانعم السلطان بهذا الحصن على عز الدين بن المقدم . الكريم المكرم والمقدام المقدم . والعظيم المعظم . والماجد الممجد . ابراهيم بن محمد . فإن هذه القلعة لثغر افامية الجارية . في اقطاعه متاخمة . وهي لها في السلم مقاسمة وفي الحرب مزاحمة .

وسرت هذه البشرى وسارت ودرت هذه النعمى ودارت . وطارت كتب البشائر . وسرحت على جناح الطائر وفيما كتبت ان هذه البشرى بما اجده الله من الفتح العزيز . والنصر الوجيز بفتح حصن برزية الذي برزت له الارض في قشب اثوابها . وتفتحت له

السماء لتنزل الملائكة من ابوابها . بل سفرت به عرائس الايام في حلى ايامها . واشرقت منه اقمار الليالي في اذوار محاسنها . وهذا الحصن لايمكن وصف ما هو عليه من الحصانه . وكأن حجره في حجر حضن الحضانة ، وقد عرف ما فتحناه من البلاد والحصون ، وسلبنا اهل الكفر بها من السلامة والسكون ، وفتحنا كل مرتج لم يكن فتحه مرتجي . ولم يجد من حصل في أسر الدهر به مخرجا . حتى أتت ايامنا ، ودنى فيه مرامنا . فجاءه عصرنا ، وفجأه امرنا . ووصل الينا ما هو في الازل نخرنا . وكمل بهذه الفتوحات فخرنا . وذلك انا فتحنا من حدود طرابلس الى حد انطاكية . وسقينا بماء الحديد الجاري في انهار دم اهل النار ، مفارس الهدى الزاكية . وجلونا بها ثغور الثغور الضاحكة وعيون العدو الباكية . وهذه الحصون التي فتحناها . والمعاقل التي استبحناها ، لو وكلنا الله الى اجتهادنا في فتح احدها . لتعذر ولو أنجدت عساكر الدنيا بمددها . لكن الله سهل ويسر . وفتح ونصر . وانزل الظفر ، وان حصن بزريه لم يكن عليه قتال . ولا للوهم فيه مجال . ولا منصب عليه لمنجنيق . ولا مسلك اليه لسالك طريق . وحضرنا لحصره ، متوكلين على الله في امره غير طامعين في فتحه . ولا راجين لنجحه ؟ فانقاد جماحه . وانخفض جناحه ، وساء صاحبه ، وكل سلاحه ، وتوقل الرجال في ذروته توقل النجوم في الافلاك . ولنصر الله اهل التوحيد على اهل الاشراك.وفتحناه بالسيف عنوة . ودجا يوم المثالث عليه يوم الثلاثاء ضحوه . فانا لما توكلنا على الله في منازلته . واستعنا به في مقاتلته . نظر الله الى النيات . واعان ذوي العزائم والثبات . فتعلقوا في الجبل . وتسلقوا الى القلل . وسعوا الى الاجل. في طلب تسني الامل . فكان كما قال الله تعالى : (وما امرنا الا واحدة كلمح بالبصر) (القمر ٥٠) حتى من الله بالظفر . واصفى الورد والصدر من الكدر . وقد بقيت انطاكية ومالها بقاء ، ولا لها في الاعتصام رجاء . وقد نقصنا اطرافها . واستبحنا اكنافها . وشفهنا نطافها . وعضدنا من رؤوس اهلها بحدود الصوارم قطافها ولم يبق من معاقلها الا القصير ودربساك وبغراس . وقد تقدم اليها الفاتحان الرعب والباس .

ذكر فتح حصن دربساك

ورحل السلطان وقد نجحت اماله . ورجحت اعماله . وحل اقباله واقبل جلاله وعبر عند شقيف دركوش الى شرقي العاصي . وقد دانت له المقاصد العواصي القواصي . واقام اياما على جسر الحديد الجسارة . شديد الاستظهار بما ظهر للمؤمنين من الربح وللمشركين من الخسارة . ثم قصدنا دربساك . وجددنا بتأييد الله في حصره الاستمساك . ووجدناه حصنا مرتفع الذرى . ممتنع الذرا ، قد جاوز الجوزاء . وناجت ارضه السماء . وكان عش الداوية بل عزيمتهم . وطالما أطال في التعدى أيديهم وعرانينهم . وكانوا قد نزلوا منذ انزلناهم من ظهور الحصن بطون الحصون . وركنوا بسكنى هذا المعقل الى السكون . فلما اشرفنا عليهم اشرفوا على المنون . ونزلنا عليه يوم الجمعة ثامن رجب . وقلب الكفر قد وجب. ووفرت المنجنيقات سهامهم من سهامها . وصوبت اليهم مددات مراميها ومرامها . ورامیناهم بها ليلا ونهارا وارسلنا اليهم امثال قلوبهم ووجوههم احجارا . وكدنا لا نذر في ارضها التي هي في السماء من الكافرين ديارا . وتركنا ناسه بالحجارة صرعى . واسمنا من نحورهم ووجوههم بيض النصال في حمر المرعى . واصبحنا يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب وقد شارف الفرنج الشجا والشجب . ووجه نجاتهم قد احتجب . وقد وقع بالنقب برج من السور الخارج . وظهر فيه عروج للدارج ودروج للعارج . فطلبوا على مراجعه انطاكية الامان . وان ينزلوا ويتركوا بكل ما فيه المكان ، فأجيبوا الى ذلك على قطيعه . وردوا ما كان للاسلام معهم من وديعة . وتسلم الحصن بما فيه ثاني عشري الشهر يوم الجمعة واصحب بهذا الفتح جماح الحصون الممتنعة .

ذكر فتح حصن بغراس

وتوجهنا بكرة يوم السبت الى بغـراس وقـد ضـايقنا الاعداء وضيقنا منهم وعليهم الذفوس والاذفاس . وهي قلعة مـن انطـاكية قريبة . وانها في الشدائد لدعائهـا مجيبـة . ورأيناهـا راسخة على رأس راس . شـامخة على عاص عاس . ارضـها في السـماء . وجوازها على الجـوزاء . متـوغلة في الشـعاب ، متـوقلة على الهضاب . مذسحبة في السحاب . مضـببة بـالضباب ، مـربة على الرباب . متعلقة بالنيرين . متسـلقة الى الفـرقدين . محلقـة الى الذسرين . ولا مطمع نحوها لطالع . ولا مـطلع فيهـا لطـامع ، ولا مطمح للامح . ولا ملمح لطامح . وهـي للداوية وجـار ضـباعها . وغاب سباعها ودار دوائرهـا . وغار مغـاورها . وغيل غوائلهـا ومنزل نوازلها وجعبة نبالها . وهضبة رئبـالها ، ومـذب ذئابهـا ، ومدب ذبابها . وكوارة زنابيرهـا . ومغـارة خنازيرهـا . ومـرقب صقورها . ومرقد لسورها . ومكنس وحوشها . ومعرش جيوشها . فخيمنا بقربها في المرج . وقد انارت من مشرعات اسـنتنا في ظلمـاء نقع خيلنا مشعلات السرج. وتقدم من العسكر جمع كثير . وجمـع غفير ، وخيم بين انطاكية وبينها . ووكل بها ناظـر يقـظته وارقـد عينها ، فأقام على سبيل اليزك . ودخل في حفظ جـانبها في الدرك . وسار يركب كل يوم ويقف تجاه انطـاكية صـفا . ويسـومها مـن الغارات عسفا وليس بينه وبينها الا النهر ، ومقـابل رجسـها منه الطهر . وصعد السلطان في جريدة عسكره الى الجبل . ووقف بازاء الحصن وقوف المشتاق على الطلل . فنصب عليه المجانيق من جميع جهاته . وصوب لقم الحجر الى لهاته ووافق آمـريه بـالاذعان على خلاف نهاته . وقلنا للمقيم به خـذ الامـان وهـاته . ومـازالت الحجارات تناوبه ، وصدى الصفا بالذكاية يجاوبه . والصـخور فيه تتواقع ، والبلايا اليه تتابع . فما شعرنا الا باذفتاح بـابه . وألجـأ جماعة اصحابنا عليه جماحة الى اصحابه . وخـرج مقـدم الداوية يستأذن في الحضور . ويسأل الأمن مـن المحـذور والحـل مـن

المحظور . ويقول انما قنينا بغراس بغراس القنا . وبنينا على حصونها من القنطاريات أحصن البنى . والمعاقل لايحميها الا معتقلوها . والبلاد لا يحفظها الا اهلوها . وما في هذا الحصن الا مقدمان . ومالنا بمقاومتكم يدان . وعاد الى اصحابه من السلطان بالامان . وتسلمت القلعة كما تسلمت أختها دربساك بالامس . وسلمها الداوية طائعين فعجبنا من انقياد اولئك الشمس . واباحوها لنا وكانوا يغارون عليها من طلوع الشمس . وأنار في مطلعها سني السجق المنصور . وآذن المتطاول فيها من تطاولنا بالقصور . وذلك في ثاني شعبان . وسر النصر فيه شار وبان . وسلم السلطان الحصنين دربساك وبغراس الى علم الدين سليمان . وكان صاحب حصن عزاز . وقد حاز الغنى به وفاز . وماكان في الامراء الا كابر من لا يدعي سواه الاعواز فالزمه بهما ليعتني بحفظهما ، وحضه من عصمتهما على حظهما ، فتسلمهما بذخائرهما . واطلع من الدفائس على مستودعات ضمائرهما وكانت حينئذ انطاكية قد اسعر غلتها سعر الغلة . وقل ساكنوها لما كانوا فيه من القلة . والغرارة تساوى اثنى عشرة دينارا . والقوم قد شارفوا فيها تبارا وبوارا ، وحزرنا ما في بغراس خاصة من الغلة ، سوى ما فيها من تفضيل الاقوات والجملة . فكان تقدير اثني عشر الف غراوة . فحصل سليمان من منبع هذا الملك على غزارة عن غرارة . فقلت كأني به وقد نقل هذه الغلة الى انطاكية وباعها ، واعرض عن متاعب الاخرة وحوى من الدنيا متاعها . واذهب الغلة بذهب يغله . ويستحلي مر هذا السحت ويستحله ، ثم يستعفي من حفظ الثغر ويشير بتخريبه . ووقع لي فيه من الظن ما كان بعد سنين فكشف عنه علم تجريبه .

ذكر عقد الهدنة مع انطاكية

فلما فرغ السلطان من شغل الحصون وظفر من فتوحها بالسر المصون . عول على قصد انطاكية فإنها كانت مريضة على شفا

ورسم قوتها قد عفا . وخلق ثيابها قد اشفى . والدهر قد انتقم منها واشتفى . ووجه الفلاح عن اهلها قد اختفى . فلو صدقها وقصدها لحص (٢٧) دعائمها وحصدها ، وكان الابرنس صاحبها قد عجل بارسال اخي زوجته . يسأل في سلم يعود ببقاء بهجته وسلامة مهجته ، وعقد الهدنة على بلده وأمن على مافي يده وذلك لثمانية اشهر من تشرين الى آخر أيار . ووافق من السلطان الاختيار لكون انقضاء الهدنة قبل ادراك الغلة وأوان حصادها . فلا يقدر الفرنج على تحصيلها ونقلها واعدادها ولم يكن له رغبة في اتمام هذا الصلح لكمال الغبطة لنا في الحرب ووفور الربح . لكن العسكر الغريب مل الاقامة . وأبدى السآمة . واراد السلم . وقيل بهذه المدة من الهدنة لاتزداد أنطاكية قوة ولا تستجد جده ولا يرجى لها عدة منجدة ونحن نضرب للعود اليها مع انقضاء عدتها عده . واما حصونها فقد حصلنا على عسلها . وقتلنا نحلها . واما هي فنعمل فيها بقول الله تعالى (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) (الانفال ٦١) وشرط على صاحب انطاكية اطلاق من في الاسر من المسلمين . واستوفى رسولها على عقد الهدنة اليمين . وسار رسولنا معه شمس الدولة بن منقذ للاسارى منقذا ، وللاوامر منفذا . وعلى المقاصد مستحوذا ، وسار السلطان ثالث شعبان على سمت حلب ، والاسلام قد غلب ، وفاز من الفتوح بما طلب ، واستغنى بما جمعه من السبي والغنيمة وسلب وخلب ،

ذكر وداع عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وعساكر البلاد . وعود السلطان الى دمشق بنجح المراد

ولما رحل من بغراس وقف لعماد الدين ودعاه لوداعه ، وشيعه بكرامة كرام أشياعه ، وخصه بعد ماسير له من الخيل والخير بخلع خواصه وأتباعه ، وأناله منه حسن اصطفائه وحسنى اصطناعه ، ولم ينفصل منهم الا من وصل بصلة ، وخلعة

مجملة ، وحرمة مكملة ، ووعد جميل يرغب في العود ، وجود جزيل مذسكب الجود ، وذلك سوى ماغذموه من كسب وكسبوه من غذم ، واستطلاقوه من رسم واستجزلوه من قسم ، وملكوه من رق سبي . وادركوه من حق سعي . وأجدوه من غرض . وأدوه من مفترض . وأحيوه من حسنة النصر ، وأماتوه من سيئة الكفر ، واستضافوه من فتح ، واستفاضوا به من نجح . وسار السلطان في عسكره ، حامدا الله في مورده ومصدره ، وارتاح الى العبور على أرتاح ، وامتار لها اليمن بافتقادها وامتاح ، ووصل الى حلب وحلب احتفالها بوصوله حافل ، والملك بها للاهتزاز بقدومه في ملابس البهاء رافل ، ودخلناها وقد خرج كل من بها للتلقي ، مستبشرين بالاقبال المتضاعف المترقي ، وشاهدنا من النظارة عيونا للمحاسن ناظرة ، ووجوها ناضرة ، وقلوبا حاضرة ، وألسنا شاكرة ، وأيديا في بسطها الى الله للابتهال بالدعاء متظاهرة ، واقتضت حركتنا الى الشهباء لساكنيها سكون الدهماء ، وأقام بقلعتها أياما يسيره ، وألفى ولده الملك الظاهر أسر احسانا وأحسن سيرة . وقام به وبالعسكر مدة المقام ، واتسقت الأمور بأوامره على النظام . ولم يرحل الا وقد خص عوامنا وخواصنا بالانعام الخاص والعام ، وأبان عن كل مذقبه ، وأعان بكل موهبة ، فما رآه والده مذ حل بحلب الا في أجمل حلية وأكمل حاله ، وأجلى بهجة وأبهى جلاله ، وقد أجد لعينه ولنفسه قرة وقرارا . وأعد لعزمه ولحزمه استنصارا واستبصارا ، ثم انفصلنا عن حلب منقطعين الى مواصلته بالدعاء ، قاطعين طرقنا المتصلة بدليلي الشكر والثناء ، وتذكبنا طريق المعرة ، بسلوك طريق المعرة ، وأوفيناها بالمبرة الموفية المبرة ، وتيمن السلطان بزيارة الشيخ الفقيه الزاهد التقي . ابي زكريا المغربي . وهو مقيم في مسجده ، عند قبر عمر بن عبد العزيز ومشهده ، وقصده السلطان على فراسخ ، ولقي منه في الحلم والوقار الطود الراسخ واهتدى بسجاياه ، واقتدى بوصاياه ، ووصلنا الى حماة . وبتنا بها ليلة واحدة ، ولم نر رعيتها لما شملها من الرعاية جاحدة ، فان الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب ، قد كشف عنها

بايالته الكروب ، وملك القبول من أهلها والقلوب ، وأعاد لها بالعمارة العمرية عمرا جديدا ، ومد عليها من مهابته ومحبته ظلا مديدا ، وكانت قلعة حماة لاتعد في القلاع المعدودة المحمية ، ولاتذكر مع المعاقل المرعية المرضية ، وهي ذات تل متبطح ، غير مترفع ولامتسفح ، فلما تولاها تقي الدين قطع من التل ماكان متواطيا ، وأتلع من التلعة جيدا عاطيا ، وعمق خندقها في الصخر وحصنها على الدهر . وبنى فيها الدور المرخمة ، والأروقة المهندسة المهندمة ، وحصنها وأعلاها ، وحسنها وحلاها ، وزينها بكل زينة ، وأعاد حماة ذات قلعة حصينة ، فاضلة في الشام كل مدينة ، فطلع السلطان تلك الليلة الى القلعة ، وسر بما رأى لها من الحصانة والرفعة ، ووقف الملك المظفر لعمه ، وجرى في الخدمة على رسمه ، وحضرنا وأمير المدينة النبوية معنا ، والسلطان قد أجلسنا بحضرته ورفعنا ، والنادي قد جمعنا ، والشادي قد اسمعنا ، والأغاريد تطرب ، والأناشيد تعرب ، فما انفصلنا تلك الليلة الا عن علم نشر ، وشرف انتشر ، وفضل سني . وعدل احيي . ورسم نائل للسماح واجري ، وزند سائل بالنجاح أوري ، وسني جد أعلي ، وجني جود أحلي ، وقرأ لذوي الحاجات القصص ، وأزال من الظلامات الغصص ، وأنال لذوي الخصاصات الحصص ، وأصبحنا على الرحيل ، ووصلنا العنق بالذميل (٢٨) ، وعبرنا مغنين على حمص وزدنا في الوصول الى دمشق على طريق بعلبك الحرص ، وجئناها قبل شهر رمضان بأيام ، وركنا الى ماأذسنا به من مقام ، وتجمع بنا شملها ، وتهلل باستهلالنا أهلها ، وقلنا نصوم مع القوم ، ونقيم مدة الصوم ، فما لبث السلطان ولامكث ، ولانقض عهد عزمه على الغزاة ولانكث ، وقال لانبطل الغزوة ، ولانعطل هذه الشتوة ، وقد بقيت صفد وكوكب وأخواتها ، وبطول مضايقتها فنيت أقواتها ، وقواتها ، فنتهز فرصة فتحها التي لايؤمن فواتها ، وخرج من دمشق في أوائل شهر رمضان . وحد عزمه رميض . ولبارق سعده وميض ، وفضله مستفيض ، ووجوه الأيام لأياديه البيض بيض ، ولسان الدهر في ذكر سيره وتسيير ذكره

مفيض ، وجناح الكفـــر بجناح رجـــائه ورواج مناجحـــــــه مهيض ، وحديث اقدامه القديم والحديث طويل عريض .

ذكر فتح الكرك وحصونه

ووردت البشرى بنجح الدرك ، في تسلم حصـن الكرك ، وذلك ان مدة غيبتنا في بلاد انطاكية ، لم تعـدم مـن محـاصرتها المضـايقة الناكية ، وكان الملك العـادل اخـو الســلطان مقيمـــا بتبنين في العساكر ، محترزا على البلاد مـن غائلة العـدو الكافـر ، مقـويا للأمراء المرتبين على الحصون ، حـافظا على الدهمـاء بحـركته في الأمور عادة السكون ، وكان صهره سـعد الدين كمشـبه الأسـدي بالكرك مـوكلا ، وبـــأهله مذكلا ، وقـــد غلق رهنه وبقـــي داؤه معضلا ، وأمره مشـــكلا ، حتـــى فنيت ازوادهـــم ونفـــدت موادهم ، ويئسوا من نجدة تـأتيهم ، وأمحلت عليهـم مصـايفهم ومشـــاتيهم ، فتـــوسلوا بـــالملك العـــادل ، وابدوا له ضراعة السائل ، وتذرعوا بـوسائل الرســائل فمـــا زالت الرســـالات تتردد ، والاقتراحات تتجدد ، والقوم يليذون والعادل يتشدد ، حتى دخلوا في الحكم ، وخرجوا على السلم ، وسلموا الحصن وتحصنوا بالسلامة ، وخلصوا باقامة عذرهم عند قومهم من الملامـة ، وكتبت عن السـلطان في بعض البشـائر ، مـــاالهى بحـــلاوته عن أرى (٢٩)الشـــائر ، وهـــو انا لما عدنا الى دمشـــــق رأينا ان لاذستريح ، ولاانثني عن كسر العـدو عزمنا الصـحيح ، فقلنا نغتنم هذه الشتوة ، ونســـتكمل الحـــظوة ، ونواصـــل بـــالغزوة الغزوة ، ونستخلص هذه القلاع التي شـغلت منا في هـذا الجـانب قلوبا وعساكر ، وأبقت لأهل البلاد في طريقها ندوبا ومعاثر ، وبيمن صدق هذه العزيمة ، والاستمرار في الجهـاد على الشـيمة ، وردت البشرى بأن حصن الكرك عاد إليه بعد الجماح الأصحاب ، وخـرج منه الفرنج ودخله الأصحاب ، وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز ، وقـد نصـب اشراك اشراكه منه على طـرق